مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ ص

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة ص

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة: ص

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟
وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ
إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى
شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

ابتدأت سورة: ص، بِمثِلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. قال تعالى ﴿ صٓ ﴾ وهو حرف واحد من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده.

وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معنى ودلالة ﴿ صٓ ﴾ فقيل إن المقصود بها، صدق محمد، وقيل: بمعنى صدق الله. وقيل: بمعنى الصادق الله تعالى. وقيل: قسم أقسم الله به. وقيل غير ذلك[1] وذكر القرطبي رحمه الله تعالى، أنه قيل هو ما استأثر الله تعالى بعلمه[2] ولعل هذا القول هو الأقرب، بأنها من الحروف المقطة التي استأثر الله تعالى بعلمه، وهو ما أيده الشوكاني

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٧/٦)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

رحمه الله تعالى، فبعد أن أورد قول من قال: بأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه. قال: وهذا هو الحق، كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة[١] ولا خلاف في التماس الفوائد الممكنة دون الجزم بأنه لا صواب غيره.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[٢] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٣] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٤] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة: ص، بهذا الحرف الذي منه اسم السورة، بقوله عَزَّ وجل ﴿ صٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد هذا الافتتاح يمتدح ربنا تبارك وتعالى القرآن العظيم ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أي: ذي البيان، وذي الشرف. وهو قسم. فالواو في مطلع القسم بالقرآن ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ هو واو القسم، فأقسم سبحانه وتعالى بالقرآن، ووصفه بأنه ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أي: المشتمل على ما يتذكر به الناس الحق الذي هم عنه غافلون، أو عندما يغفلون عنه. لأنه بتلاوة القرآن الكريم يتذكر بها الإنسان ما فاته وما غفل عنه،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤١٩/٤)
(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)
(٣) المرجع السابق (١٠٩/١)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

وما نسيه، وما كان به جاهلاً. وورد في معنى ﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ أنه الشرف، وقيل: أي: فيه ذكركم، وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال: ذي التذكير لكم[١] فهو يجمع بين الشرف وبين البيان الذي يتذكر به الإنسان الحق. مما يفيد ويؤكد أن مداومة قراءة القرآن تُذكر الإنسان بالحق، وتوقظ عقله وفكره، وتُنشط انتباهه للطاعة، والبعد عن المعصية.

ثم بعد أن أقسم الله تعالى بما تضمنه القرآن من الشرف والبيان، والتذكير، وأثبت بذلك أنه ليس مكاناً للشك والريبة، يُثبت بعد ذلك أن إعراض من أعراض عن القرآن الكريم هو بسبب ما في نفوسهم من الاعتزاز والكبرياء. فقال تعالى ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فإن الذين أعرضوا عن القرآن العظيم من الكفار إنما كان إعراضهم بسبب أنهم يرون أنفسهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ في تعزز واستكبار عن قبول الحق، وكذلك هم في مشاقة له ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: عناد وامتناع عن قبول الحق. فالمانع لهم عن قبول القرآن وما فيه من بيان وتذكير ومواعظ هو ما في نفوسهم من الاستعلاء والعناد. وليس لشك ولا مرية عندهم فيه.

مما يبين أن الاستكبار يُوَلِّد في النفس الاستعلاء بالإثم، وعدم محبة الانصياع للحق، فيجادل ويشاق الحق بالعناد والطعن فيه. ومن دقائق البيان أن حرف ﴿بَلِ﴾ قد ورد في مطلع الآية، ليعطي فائدة النفي والإثبات، فينفي عن القرآن العظيم الشك والريبة، التي يتمنع بها الكفار عن قبول القرآن. وليثبت ما بعده من أن امتناعهم هو بسبب ما في نفوسهم من الاعتزاز والشقاق، الذي يفيد الاستكبار والعناد، فإن اجتماع الاستكبار والعناد معاً في نفوسهم جعلهم يضربون عن قوة تأثير تذكير القرآن لهم بالحق.

ثم يعظ ويُخَوِّف الله تبارك وتعالى المكذبين بما كان من حال من كان قبلهم من الكفار في الأمم السابقة التي كذبت المرسلين، فيقول تبارك وتعالى ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فما أكثر الأمم السابقة التي أهلكناها بسبب تكذيبهم لمن أرسلنا من الرسل إليهم ﴿فَنَادَواْ﴾ بالندم والتوبة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ولكن فات وقت التوبة عليهم. فقد كانت توبتهم ورجوعهم إلى الحق بعد أن فات وقت التوبة عليهم، أي: في الحال والوقت الذي ليس هو زمن ومكان التوبة، بما يفيد أنهم كانوا في حال معاينتهم وقوع العذاب بهم. فحالهم هو حال الْمُهْلَكِين بالدمار ووقوع العذاب عليهم، الأمر والشأن الذي لا تنفع فيه التوبة إذا وقع العذاب. بما يفيد التحذير والتهديد من أن يصير مصير المكذبين بالرسول صلى الله علي وسلم كحال من سبق من المكذبين الجاحدين للحق، وبما يفيد كذلك: عليكم أن تعتبروا بمن قبلكم. وفي هذا إعذار وإقامة الحجة، بأن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٨-٩)

لا يلوم الإنسان إلا نفسه بعد هذه الحجج والأدلة. فاعتبروا أيها الناس بمن سبقكم. مما يفيد أن العاقل هو الذي يستفيد ممن سبقه في كل الأمور، وأعزها أمور الآخرة، وما يتعلق بطاعة الله عَزَّ وجل.

وقد ورد البيان من الله تعالى بتعظيم وتكثير المشابهين لكفار اليوم، بأن الذي منعهم هو اعتزازهم وشقاقهم وعنادهم عن قبول الحق. فجملة ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ تفيد كثرة الهالكين بعذاب الله تعالى ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ أي: من قبل الذين أُرسل إليهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾ أي: من أمة، فالمقصود بالقرن هي الأمة. وعندما حل عليهم الهلاك ﴿فَنَادَواْ﴾ أي: كان نداءهم هو نداء استغاثة، وتوبة مما كان منهم من الكفر والعناد والشقاق والاستكبار، ولكن ﴿وَّلَاتَ﴾ أي: وليس ﴿حِينَ﴾ أي: وقت وزمن، فليس الحين والوقت هو وقت التوبة، فقد فات عليهم بمعاينة العذاب. وتدل دلالة ﴿مَنَاصٍ﴾ على معنى المهرب، فليس ثمة مهرب مما حل بهم من العذاب. فحالهم هو حال امتناع المهرب والفرار، والتأخير، والنجاة مما هم فيه من العذاب، فلا مفر منه، بما يفيد قد أحاط بكم العذاب إحاطة لا مخرج لكم منه. فاعتبروا أيها الْمُخَاطَبون بمن كان قبلكم.

ومن قبح المستكبرين المغرورين المشاقين للرسول صلى الله عليه وسلم هو تعجبهم من أن ينذرهم واحد منهم، فيعرفونه أشد وأدق المعرفة لسيرته الكريمة ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ فقد تعجب أولئك الكفار الذين وصفهم الله تعالى بأنهم في عزة وشقاق ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ استنكفوا واستنكروا استنكار تعجب ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ فقد عجبوا فيما ليس فيه وجه للعجب والتعجب، وبما يفيد الاستنكار عليهم من هذا التعجب الذي أوقعوه في غير مكانه. من أن يكون الرسول المنذر لهم هو منهم ﴿مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي يعرفونه حق المعرفة، من خلال معايشته معهم، فيعرفون تفاصيل سيرته. ولكنهم ازدادوا بذلك الحق نفوراً. بما يفيد أن مبنى العناد والاستكبار هو مناكفة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لما في قلوبهم من الحسد والاستعلاء.

كما يفيد أنهم يريدون أن يكون الرسول وفق ما تهوى نفوسهم، وأن الأمر لهم وليس لله تعالى. وبما يعطي دلالة التطاول والاستعلاء في نفوسهم. مما يفيد أهمية التعقل، وأهمية قبول من يصطفيه الله تعالى. بل وتمتد فائدة هذا البيان إلى أهمية قبول من يتولى ولاية، مهما كانت كبيرة أو صغيرة، فعلى الجميع قبول من تولى عليهم، وأن يسددوه ويعينوه على تكاليف ما تكلف به، وأن يسددوه، ولا يشاقوه. وهذ أمر مهم في مجال جميع مستويات الولاية والإدارة. كما يفيد هذا الحذر من العجب بالنفس، لأنها تقود إلى التعجب من الحق، فترده

بالاستنكار المملوء بالعجب. فالإعجاب حالة استنقاص واستنكار في داخل النفس للغير، وذلك نتيجة الإفراط في الاعتداد والاعتزاز بالنفس إلى حد الغرور الذي يرفض به المغرور غير ما يرى.

وبعد أن تعجبوا، تعجب استهزاء وتقليل وإنكار، أعلنوا تفسيرهم وتعليلهم المبني على الكذب والبهتان العظيم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فلما رأوا المعجزات الخارقة، والخارجة عن قدرات البشر رموه بالسحر ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ فاتهموه فيما جاءهم به من الحجج بأنه سحر، أي: أنه خدع أعيننا فأصبحنا نرى غير الحقيقة، وأكدوا رميهم له بالسحر بأنه ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: افترى الكذب علينا بهذا السحر. فهذا الطعن منهم هو بسبب أنه ليس لهم مخرج يتناسب مع تعززهم وشقاقهم إلا رمي الحق بصفة الباطل، وإلباسه ملابس الخداع والكذب، حتى يصدقهم أتباعهم، ويبررون لأنفسهم استكبارهم وعنادهم ومشاقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم.

وقولهم هذا هو منافي لِمَا يعرفونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من الصدق والأمانة، حتى أنهم كانوا يسمونه: محمد الأمين، وجعلوه حكماً بينهم عند اختلافهم فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه مكانه من الكعبة. ولكن ذلك يكشف مسلك الحسد والاستكبار عندهم، فالكبر يجعل المستكبر يختلق ويخترع الأكاذيب التي يبرر بها امتناعه عن الحق. وفي هذا درس وعبرة وموعظة بأن على الإنسان أن يحذر من آثار الكبر والحسد، وأن واجبه هو أن يدافع نفسه ويجاهدها عن منكرات الحسد والكبر في جميع تعاملاته، فلا يستسلم لوساوس الشيطان، وطغيان البطر، والاستنكاف على الحق، كالذين يمكنهم الله تعالى بشيء من أمور الحياة. كالسلاطين والحكام والأمراء والملوك، والمدراء، والرؤساء، وأئمة المساجد، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ونحو ذلك.

ثم يمتد بهم تبرير إعجابهم إلى إنكار وحدة العبودية، وإنكار أن يكون الرب واحد للجميع، مما يدل على انحراف التبرير، وانحراف التحليل والمقاييس، فقال تعالى عنهم، أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ سؤال استنكار من المشركين: أن يجمع الآلهة المتعددة في إله واحد، ويحصره ويقصره على الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ فإن هذا الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من إفراد الله تعالى بالعبودية، وحده لا شريك له، فإنه لأمر بالغ الْعُجْب إلى أقصى ما تبلغه غاية التعجب، إذ يجمع الألوهية في إله واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، ويُلْغي جميع آلهتنا. مما يفيد أن جهلهم قد أخذهم إلى ما يتنافى مع العقل الذي يؤيده النقل الشرعي. الذي هو: أيعقل أن يكون في هذا الكون آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر، ويُترك الواحد الأحد الذي خلق هذا الكون كله. فإن تعجبهم هو مثار تعجب عند العقلاء، فضلاً عند أهل الإيمان. فهو تعجب انحطاط في الفهم، وفي القياس والتحليل والنتائج. فإن كل مفردة في الكون تدل على وحدة الخالق، وبالتالي وحدة المالك، فيلزم به وحدة المعبود الذي تتوجه له القلوب بالطلب والرجاء والعبادة وفق ما شرع.

ثم يخبر الله عَزَّ وجل بما كان من كبرائهم وقادتهم، حين ينطلقون إلى مجالسهم، ويتكلمون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ فإذا بهم يتفقون على البقاء على الشرك، والكفر بالحق الظاهر المبين، فبدأ البيان الكريم بدلالة ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ ﴾ التي تفيد السرعة في اتخاذ القرار من غير تريث. أي: شرع ﴿ٱلۡمَلَأُ ﴾ من الرؤساء والكبراء وقادتهم في إنفاذ ما تواصوا به بينهم ﴿ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ ﴾ بأن تصبروا على معبوداتكم، ولا تتنازلوا عنها. ويشمل الانطلاق في دلالة قوله تعالى عنهم ﴿ وَٱنطَلَقَ ﴾ الانصراف بالرأي، وأيضاً بالمشي والسير. فجمع البيان بدقته أمرين متعاضدين: أحدهما: الانصراف بما هم عليه من الكفر عن المتابعة والتأثر بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. والثاني: الانصراف بالمباعدة، أي: بالسير والمشي عن محمد صلى الله عليه وسلم. وهذه من عظمة دقائق البيان إذ جمع السياق الدلالات المتعاضدة بسياق واحد، دون الحاجة إلى إفراد وإعادة بناء السياق لكل معنى ولكل مراد.

وخص البيان الكريم الكبراء منهم ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ ﴾ لأنهم أصحاب الرأي والمشورة، وغيرهم أتباع لهم، فيحذون حذوهم. فقد انطلقوا في حوارهم ومناقشتهم، وتناصحوا وتواصوا بينهم بقولهم ﴿ أَنِ ٱمۡشُواْ ﴾ أن أمشوا واتركوا كلام محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ ﴾ واثبتوا على عبادة آلهتكم، بما يفيد التحذير من التأثر بما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم. لأن متطلب الصبر ﴿ وَٱصۡبِرُواْ ﴾ هو الثبات والملازمة وعدم التأثر بإحداث التغيير. فهو تعاهد بينهم على ذلك. مما يفيد الانصراف عن كل ما يحذرهم ويعظهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يعززون ما توصلوا إليه من الرأي بتأكيده تأكيداً لا خروج عنه ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ التأكيد على أن وراء هذه الدعوة من محمد صلى الله عليه وسلم ما يخفيه من مراده، بما يفيد أنه ليس بصادق فيما يقول، وإنما لعلة وقصد منه. وأشاروا إلى ذلك باسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ أي: إلى ما كانوا يسمعونه من الرسول صلى الله عليه وسلم، ومؤكدين دلالة ﴿ يُرَادُ ﴾ بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ وفي التجهيل بالمراد ﴿ لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ لتعظيم ما يخفيه وراء دعوته لهم بترك الشرك ونبذه وتوحيد الله تعالى لا شريك له، حتى يُخَوِّفُون به بعضهم البعض، وكذلك أتباعهم. لأن الإنسان يخاف مما يجهل بسبب ما يتوهم. وقد جعلوا الشيء الذي يُراد عاماً ليستوعب كل الاحتمالات﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ وكذلك لإفادة تعظيم ما وراء ذلك الشيء في النفوس،

حتى لا تقبله، ولا تُقبِل عليه، وتتهيب منه وتخافه، وتتصرف عنه. فيجمع بذلك مضمون ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ طلب السيادة عليهم، فيكونوا اتباعاً له. وقد يكون الملك، وقد يكون إيقاعهم في شر، وحروب، فهي أمور لا حصر لها من الاحتمالات التي أوهموا غيرهم بها، ليجعلوا العقول تجول في الاحتمالات العظيمة من الشر. فإن في التجهيل به ما يُعَظِّم المقصد والمراد، إلى درجة التخوف منه. وكل ذلك نتيجة الحسد والاستكبار الذي نفوسهم.

ثم يتواصون بالمزيد من الشر والكفر والعناد، وبالمزيد من التبرير الباطل من القول، فيقولون ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ فيقولون فيما بينهم ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ فهذا الذي يدعو إليه محمد من توحيد الله تعالى ونبذ معبوداتنا، لم نسمع به ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: حتى في آخر الملل، وهي دين النصارى. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، يقول: النصرانية[١] فلو كان ما يدعو إليه حقاً لأخبرونا النصارى به. فهو نفي مستمر ومتعاقب من الأمم إلى زمن آخر الملل، وهي ملة النصارى، ففي انتفائها في آخر الملل دليل على انتفائها عما سبق من الملل، وذلك حسب تجهيلهم لأنفسهم وغيرهم. وبناء على هذه المقدمة جاء الحكم منهم بقولهم ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ فهذا الذي يقول به محمد ما هو إلا كذب مختلق ومخترع، فلا حقيقة له. مما يبين كثرة المجهود الفكري والذهني الذي كانوا يقومون به من أجل محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم وصد الناس عنه، من خلال التهويل والتخويف من كل صوب ووجه.

ثم يخبر الله تعالى بما كان منهم من الاستنكار على تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بمنقبة النبوة والرسالة من بينهم ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ فهم يعترضون بصيغة السؤال الاستنكاري، الذي يعترضون به على تخصيصه صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة من بينهم ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أيتم إنزال الذكر الذي هو القرآن عليه ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ جميعاً؟ فكيف يتم ذلك؟ ونحن الوجهاء والكبراء؟ إذاً فالاستنكار هو عن الاستحقاق حسب مقاييسهم الفاسدة، بما يفيد أنهم يرون أنهم الأحق بها، وكأنهم يقولون لو كان واحداً منا لقبلنا به، ولكن كونه أُنزِل على محمد، فلا نؤمن به ولا نصدقه أبداً. مما يدل على أن المانع لهم هو الحسد والاستكبار.

بل اعترفوا بإنزال القرآن ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ ما يدل على اعترافهم، ولكن منعتهم مقاييسهم الفاسدة، والمبنية على الكبر والحسد. مما يبين أن البعض يرى أنه هو الأحق بالنبوة، ويرى غيره ليس أحق منه بما رزقه الله تعالى، ومَكَّنَه منه. ويُمْكِن استصحاب ذلك في الكثير من شؤن الإنسان، على من يتقدمه في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٢٠)

مال، أو جاه، أو رئاسة، أو شيء من مناصب الدنيا، فلرؤيته أنه هو الأحق، يتذمر من ذلك، وربما شاقق غيره لتلك العلة وذلك السبب. مما يُعَلِّم الإنسان أن الله تعالى له حق الاصطفاء، والاختيار، وأن مَن أنعم اللهُ تعالى عليه بنعمة، فهي عطاء الله تعالى وإنعامه على من يشاء. وليس للعبد الاعتراض على قسمة ربه بين عباده. فالاستسلام لمشيئة الله تعالى في كل شأن يرتقي بعقل الإنسان، وبقراراته وأحكامه، وعلاقاته بغيره.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى شأنهم مع القرآن الكريم بعد أن أنزله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي ﴾ فإنهم في شك من القرآن بسبب نزوله على محمد عليه الصلاة والسلام. بما يدل على إعراضهم وتشكيكهم في القرآن العظيم لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولم ينزل على أحد ممن يرونه أحق بحسب مقاييسهم وقسمتهم وافتراضهم وتفكيرهم. وبالتالي أعرضوا عن الأدلة الموجبة على التصديق والإيمان. فافتعلوا الشك. وقد جاء الانتقال من سؤالهم الاستنكاري الذي يعترضون به على تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم بالرسالة إلى شكهم في القرآن بحرف ﴿ بَلۡ ﴾ ليفد الانتقال إلى نكرانهم للدليل والحجة ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي ﴾ لتعظيم ما كان من جحودهم. ثم ينتقل بحرف ﴿ بَل ﴾ إلى الاستعلاء بما أنعم الله تعالى عليهم من عدم معاجلتهم بالعذاب ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ بسبب أنهم لم يذوقوا عذاب ربهم، فاغتروا بحلم ربهم وإمهاله لهم.

فيخبر سبحانه وتعالى بأن من علل وأسباب عنادهم أنهم لم يذوقوا فيما مضى شيئاً من عذاب ربهم ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ فإن إعراضهم هو بسبب أنهم لم يذوقوا عذاب ربهم، فاغتروا بحلم ربهم وإمهاله، وعدم معاجلتهم بالعذاب. بما يفيد أنهم لو ذاقوا شيئاً من عذاب ربهم لصَدَّقُوك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وصَدَّقوا بما جئت به من القرآن العظيم. مما يبين أهمية الحذر من حلم الله تعالى، من عدم معاجلته للمذنب بالاقتصاص منه، فليحذر ولا يتمادى، فإن الله سبحانه وتعالى حليم، ويمهل العبد، لعله يتوب، ولعله يقلع عما هو عليه من المعصية. فلا يغتر أحد بحلم الله تعالى.

ثم يرد الله تعالى على مقاييسهم في تقسيم الأرزاق والاختصاص والعطاء، التي منها تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة من بينهم، بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴾ فهل امتلكوا مفاتيح خزائن الله سبحانه وتعالى من الرحمة والاصطفاء والعطاء والأرزاق، حتى يحددوا ويختاروا ما يشاؤون لمن يشاؤون من العباد. سؤال استنكار من تصرفهم وأقوالهم التي يستنكرون بها على الله تعالى ما هو من ملكه وتحت مشيئته مما يشاء من العطاء والاصطفاء، وكأن مُلك خزائن الله سبحانه وتعالى لهم، فتخيرون ما يشاؤون.

فورد البيان بصيغة الاستنكار الذي يفيد امتناع أن يكون لهم الحق في التعيين والاختصاص، إذ أن خزائن الله تعالى ليست موكلة لهم، ولا لأحد من العباد. وسماها الله تعالى ﴿خَزَآئِنُ﴾ جمع خزينة، لإفادة الكثرة والتنوع. ومن جميل البيان ودقة دلالته أن أضاف الرحمة للخزائن ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ بما يفيد أنه مع تنوعها وكثرتها ونفاستها، فإنها غزيرة بالرحمة التي يرحم الله تعالى بها العباد، وبذلك تم تقريب المعنى للمخاطبين. ولتعطي بياناً لنفاسة ما وهب الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والرسالة ونزول القرآن العظيم عليه، فإن ذلك من خزائن رحمة الله تعالى عليكم أيها الناس.

وفي تسمية خزائنه عَزَّ وجل بالرحمة ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ ما يدل ويفيد على أن جميع خزائن الله تعالى هي رحمة للعباد، وأن هذا الدين هو رحمة، لأنه من خزائن رحمة الله تبارك وتعالى. وقد ربط تبارك وتعالى تلك الرحمة بالربوبية ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ لإظهار الربوبية لكل ما خلق، فهو ربكم ورب رسوله صلى الله عليه وسلم، ورب كل شيء ومالكه، والمتصرف فيه بما يشاء وكيف يشاء، وفي تعيين الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ ما يفيد التخصيص بالتشريف والاصطفاء. كما ارتبطت بصفة العزيز الوهاب ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ الغالب والقاهر لجميع الأشياء، والذي يهب ويعطي بغير حساب.

فقد أفادت دلالة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. ومع هذا فهو الكريم ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾ الذي يهب ويعطي بغير حساب، وبغير وجوب استحقاق. فالهبة تكون اصطفاء من عند الله تعالى، ومنها النبوة، وغيرها من عطاء الله تعالى، فهو الوهاب الذي يهب لعباده الخيرات من الأرزاق، والدين، والصحة والعافية، والأعمار، والعلم والمعرفة، وغيرها من الهبات التي لا حصر ولا عَدَّ لها من كثرتها وتواليها على العباد. فنسأل الله تعالى الوهاب أن يهب لنا كل خير، وبما يرضيه به عنا، ويدفع عنا كل شر. ومن دلائل ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ في هذا السياق التحذير من قدرته وعزته وقهره للأشياء، وترغيب لكل العباد في طاعته، وفي ابتغاء ما عنده من خزائن الرحمة الكثيرة والمتنوعة التي لا حصر لها.

ثم ينتقل البيان التفصيلي لِمَا يدور في أذهانهم من دوافع الاستعلاء التي في نفوسهم، وكأنما وصل بهم الحال في مقولاتهم أنهم امتلكوا السماوات والأرض، فيريدون أن يتصرفوا من دون الله تعالى كما يريدون. فيقول جَلَّ جلاله تهكماً مما وصلوا إليه ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ أم

بلغ بهم الحال أنهم يرون أن لهم مُلك السماوات والأرض وما بينهما، حتى يختاروا من يريدون رسولاً، ويعطون ويمنعون ما يشاؤون. فيعترضون بناء على ذلك الخيال الذي في عقولهم على اختصاص الله تعالى وتدبيره في ملكه بما يشاء. فإن كان لهم ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ فإن كانوا محقين في ذلك كما يتوهمون فليصعدوا إن استطاعوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، حتى يحكموا بما يريدون من العطاء والمنع.

وهذا من باب إيقافهم أمام عجزهم في مقابلة شقاقهم واستنكافهم، واستنكارهم على اصطفاء الله تعالى لرسوله محمد من بينهم، عليه الصلاة والسلام. كما أن في التنويه بالأسباب ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ما يبين أن سنن الله تعالى مبنية على نظام من الله سبحانه وتعالى، والأسباب هي الطرق والسنن التي يمكن لهم اتخاذها للصعود إلى السماء، لبيان كمال عجزهم، وأن مسلكهم في الاستعلاء لا يتناسب مع عجزهم وضعفهم، فإنهم عاجزون، وفقراء إلى الله تعالى. وبالتالي كيف يكون منهم ذلك العناد والاستعلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهم عاجزون.

ثم يخبر الله تعالى بأنهم مهزومون، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين منصورون عليهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ جميع جند المكذبين مهزومون. فهؤلاء الأجناد من المكذبين الذين هم في اعتزاز واستنكاف ومُشاقة للحق، سَيُغلَبُون وينهزمون كما انهزم الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين. مما يفيد أنه مهما كان التحزب من أجناد من يتجمعون ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين فإنهم خاسرون ومهزومون. وفي هذا بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالنصر على من عاداهم، مهما كان لهم من قوة التجمع والتحزب. وفي نفس الوقت إنذار وتحذير للمعاندين من خسارتهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

وبعد أن بين تبارك وتعالى أن حِزب الشرك والمشركين مهزومون بأمره وعزته وقهره لهم سبحانه وتعالى ينتقل البيان إلى إظهار الدلائل من الشواهد الكثيرة على ذلك من الأمم السابقة التي حَلَّ بها العذاب، فيقول

تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ كذب قبل هؤلاء المشركين من قريش قوم نوح، وعاد، وفرعون، وخص سبحانه وتعالى وصف فرعون بأنه ذو الأوتاد ﴿ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ قيل: ذو البنيان. وقيل: أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها، فيرمي عليهم صخرة فيقتلهم بها. وقيل ذو البناء المحكم. وقيل غير ذلك[1] بما يبين قوة ما وهبه الله تعالى من الملك، وقوة ما هو عليه من التجبر والبطر والأشر، ومع ذلك أهلكه الله تعالى، بمثل ما أهلك به تلك الأمم.

وكذلك من تلك الأمم التي أهلكها الله تعالى ﴿ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴾ ومثلهم قوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وهم أهل مدين، الذين هم قوم شعيب، المنسوبون لأشجار الأيكة، لبيان ما كانوا فيه من نعيم البساتين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴾ أولئك الذين اجتمعوا بقوتهم ضد المرسلين لهم من الرسل، فأهلكهم الله تعالى، ولم تنفعهم قوتهم وعتادهم. بما يفيد التحذير من أن يكون مصيركم كمصيرهم، فاستسلموا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءكم به من الحق، قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب تلك الأحزاب من العذاب والهلاك.

ثم يخبر الله تعالى بأن جميع تلك الأحزاب كذبت المرسلين ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فكل حزب من أولئك المذكورين كذب برسوله ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فحق عليهم عقاب الله تعالى لهم بما كان منهم من التكذيب. بما يفيد اتعظوا بغيركم، واحذروا عقاب ربكم، وأطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أهمية التعليم بالأحداث الحادثة، والمواعظ والوعظ والتذكير بها، فإنها وسيلة لمن أراد الخير والصلاح والاتعاظ.

ثم يزداد التحذير لهم، بقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ وما ينتظر ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي: أهل مكة من المشركين المكذبين ﴿ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ أي: نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى بها إسرافيل أن ينفخها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع بالهلاك. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يعني بالصيحة الواحدة: النفخة الأولى في الصور[2] فليس لهم من رجوع، ولا إفاقة ولا راحة ولا انتباه. إلا من استثناه الله تبارك وتعالى. أي: ما ينتظرون إلا حلول القيامة بهم، بأن تحل الساعة بهم

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢١/٦-٣٢٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩/٢٠)

حين تأتيهم بغتة. ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ فليس لها من رجوع، ولا إفاقة ولا راحة ولا انتباه حتى يعودوا إلى ما يمكنهم من التوبة والعدول إلى قبول دين الله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ومعنى الآية: أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، ولا تُرد عنهم، ولا تصرف منهم، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة(١) فليس فيها إفاقة وانتباه، ولا رجعة لما كانوا عليه، ليستدركوا شيئاً مما فاتهم، فيؤمنوا.

ولما سمعوا ما توعدهم الله تعالى به من العذاب، قابلوا ذلك بالاستهزاء ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ فقال الكفرة المشركين: عجل لنا يا ربنا ﴿ قِطَّنَا ﴾ أي: نصيبنا وحظنا من العذاب وحظوظ الدنيا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ قبل يوم القيامة. وورد النصيب بدلالة ﴿ قِطَّنَا ﴾ بصيغة العموم، ليشمل ما يكون من العذاب، وما يكون من حظوظ الدنيا، على سبيل الاستهزاء والاستبعاد. فعجل لنا بها في الدنيا قبل يوم القيامة. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل حظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله تعالى عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا، استهزاء بوعيد الله تعالى(٢) وقال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن أورد كلام ابن جرير: وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم(٣) فأخرجوا كلامهم هذا مخرج الاستبعاد والاستهزاء والتكذيب، فإن هذا في حال أن صدقناكم بما تقولون عن يوم القيامة، والحساب والجنة والنار. وفي إيراد الله تعالى لقولهم هذا ما يفيد الإنكار منه سبحانه وتعالى عليهم، وبيان لجرأتهم بهذا القول، من سؤال الله تعالى هذا السؤال العظيم، بالدعاء على أنفسهم بأن يعجل لهم العذاب قبل يوم القيامة الذي ينكرونه أصلاً.

ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يكون منه معهم ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ تعامل معهم أيها الرسول بالصبر على ما يقولون من الكلام الفاحش البذيء. وتذكر عبدنا من المرسلين السابقين ﴿ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ تذكر ما كان من عبدنا داود من الصبر ﴿ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ أي: ذا القوة في العلم والعمل. فالأيدي تفيد القوة. لتشمل القوة في العبادة والطاعة والعمل

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٤٢٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٣٩)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٢)

والعلم، والصبر. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، فقد كان يرجع إلى الله تعالى في كل شأنه، ويرجع عن كل ما يكرهه الله تعالى ولا يرضاه، بما يفيد شدته في الانضباط والتوخي والحذر، وذلك طاعة لربه عَزَّ وجل.

وفي وصفه بأنه أواب، تزكية له بذلك عليه الصلاة والسلام، وبيان أن داود عليه الصلاة والسلام كان كثير الرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة وغيرها من الطلب والسؤال والاستعاذة والرجاء، ونحو ذلك. كما أن في وصفه بأنه ذو الأيدي، ما يفيد شجاعته، وإقدامه، وتحمله، وصبره على الطاعة، وعن كل ما يكرهه الله تعالى، وكذلك في العلم والعمل بالطاعة. فإنه محل للقدوة والأسوة. وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن يتأسى بما كان عليه داود عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أهمية التذكير بمن يُقتدى بهم في كل شأن، لما لذلك من الأثر على الانضباط، وتقوية الإرادة لمواجهة المصاعب. وأن الحياة مليئة بالمصاعب والمشاق، لأنها دار ابتلاء واختبار، وليست كالآخرة دار جزاء. كما أن في وصفه عليه السلام بأنه أواب، ما يفيد ويثير أهمية التأسي والاقتداء به عليه الصلاة والسلام في الرجوع إلى الله تعالى في كل شأن، ومنها الاستغفار والتوبة، والعبادة والطلب والاستعاذة، والعلم والعمل.

ثم يخبر الله تعالى بما امتن به على داود عليه السلام من الفضل والتمكين ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ فمكافأة له على ما كان منه اثنباه بتسخير الجوامد من الجبال أن تسبح معه، مشاركة له. فإن من كرم الله تعالى على عبده ونبيه داود عليه الصلاة والسلام أن سخر الجبال تسبح معه بالتسبيح والتنزيه لله رب العالمين ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ فتسبح الجبال معه حين يسبح. قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان إذا سبح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذكر[١] وقال قتادة رحمه الله تعالى: أي: يصلين مع داود إذا صلى[٢] فالتسبيح يشمل الذكر، ويشمل غيره من العبادات، لأنه يجتمع مع الصلوات الذكر أيضاً، من التسبيح والتحميد والتكبير. مما يفيد حرصه عليه السلام على ذكر الله سبحانه وتعالى، وحرص الجبال على ذلك كذلك، وأن الله يُنطق من يشاء بمنطوقه الذي يتناسب مع خلقته وتكوينه، فالجميع يقدس وينزه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به. ومن كثرة تسبيحه وتسبيح الجبال معه أنه ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ وقت آخر النهار، من بعد العصر، مع التقاء أول الليل، وكذلك وقت الإشراق، هو وقت طلوع الشمس، وظهور ضوئها، فيشمل الضحى من الأوقات الذي يمثل وضوح ضوء الشمس على الأرض. مما يدل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٨/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٩/١٦)

على فضل الذكر في هذين الوقتين. كما يشمل البيان إظهار المبالغة من كثرة الذكر، ومن حيث طول الوقت والزمن.

وفي هذه المشاركة ما يبين عظيم قدرة الله تعالى، مما يبين أنه لا شيء يستحيل على الله تعالى، ولا شيء يُستنكر على ما يُخَصِّص اللهُ تعالى به بعض عباده. فالكون كله لله تعالى. وفي مشاركة الجبال والطير لداود عليه السلام بالتسبيح ما يدل على كرامته ومنزلته عند الله تبارك وتعالى، وفي ذلك تعظيم لشأن نبيه داود عليه السلام. وفيه بيان بأن الكون كله لله تعالى، يُسَخِّرُهُ كيف يشاء، وأن صورة تسبيح المخلوقات لله تعالى ومنطوقها به لا يفقهها الإنسان، ولا يعرف كيفيتها، فلا يُدرك هيئة تسبيح غيره من مخلوقات ربه جَلَّ في علاه.

ثم يفرد الله تعالى بالذكر نعمة أخرى على داود عليه السلام، وهي عالم الطير، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ وسخرنا لعبدنا داود الطير حال كونها ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ أي: حال كونها مجموعة إليه بعد تفرقها وطيرانها وتنقلها، فتسبح الله تعالى معه ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ كل واحد من داود عليه السلام والجبال والطير أوابين برجوعهم إلى الله تعالى بطاعته وذكره، والامتثال لأمره، وعبادته. وفي هذا غاية التكريم لداود عليه السلام، وكذلك بيان لجميل الطاعة والشكر لله تعالى، بكثرتها وتعاقبها، والتزام الرجوع لله تعالى، فلا يفترون عن عبادة ربهم عَزَّ وجل، ليكون ذلك قدوة ومثالاً للإنسان بأن يكون مثالاً في الطاعة كما كانت الجبال والطير وداود عليه الصلاة والسلام. كما أن في ذلك التخصيص ما يفيد أن الله تعالى يختص عباده بما يشاء. فله الحكم، وله الملك، وله المشيئة بما يشاء عَزَّ وجل. وفي هذا تنبيه للكفرة بأن الله سبحانه وتعالى يصطفي من يشاء بما يشاء من العطاء، فليس لأحد من خلقه الاعتراض. فواجبكم أيها الناس طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر تبارك وتعالى امتنانه على داود عليه الصلاة والسلام، بتقوية مُلكِه، إضافة إلى ما أعطاه من قوة الحكمة في الرأي، مع قوة البيان، فيقول ربنا عَزَّ وجل ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ فابتدأ سبحانه وتعالى بذكر تقويته لِمُلك داود عليه الصلاة والسلام ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي: ثبتناه وقويناه. وورد التثبيت والتقوية بصيغة العموم ﴿ وَشَدَدْنَا ﴾ ليشمل كل أنواع التقوية، من النصر على الأعداء، والتَّمَكُّن من إدارة دولته ومملكته، وتشييد الأبنية والقصور، والمصانع والتطور والتطوير، وإلقاء الرعب في قلوب من يواجههم، وتسخير جميع ما يحتاج إليه. مما يفيد أن القوة والتقوية والتمكين هي من الله سبحانه وتعالى، وأن الله عَزَّ وجل إذا أراد النصر والقوة لأحد من عباده مَكَّنَه وسدده، وشد له ما أعطاه بالقوة والتمكين، سواء كان في ملك، أو علم، أو صناعة أو طب، أو تجارة، أو غيرها من أمور الحياة المختلفة. مما

يستلزم طاعة الله تعالى، والتزام منهجه، وسؤاله، والالتجاء إليه، والتوكل عليه، والتعامل فيما أعطاه الله تعالى وفق شريعة الرحمن الرحيم.

وكذلك مما مَكَّن اللهُ تعالى به عبده ونبيه داود عليه السلام أن رزقه قوة الحكمة والبيان في الكلام، فقال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فقد أعطاه الله تعالى ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة، والفهم والفطنة والصواب في القول والعمل. فهي جامعة لكل ما يجعله يضع الأمور موضعها الصحيح. وكذلك أنعم عليه بنعمة قوة البيان ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: قوة البيان وفصاحة الكلام وبلاغته، بحيث يجمع المعاني والدلالات في القليل من الألفاظ، فيستوفي كلامه مراده بأجمل وأدق خطاب.

وفي إضافة صفة الفصل للخطاب ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ ما يفيد وصول خطابه إلى درجة المبالغة في بيانه، ومنطوقه لمراده، فإن الفصل يفيد القطع والعزل، فيعزل كلامه عن كل احتمال لغير ما يريد. فكلامه فاصل للمتلقي ممن يخاطبه، فلا يحتاج إلى مزيد تفصيل، ولا يشتبه كلامه على الْمُتَلقّي بأي احتمال غير ما أراده داود عليه السلام. مما يبين نعمة العلم، وأنها هبة من الله تعالى، فهو الذي يعطي عباده ما يشاء من الفهم والفصاحة، فذاك يتميز في بلاغته، وذاك في الحفظ، وذاك في استطراده ومتابعته في الخطاب والبيان، وذاك في حكمة منطوقه من الكلام، وذاك في قوة تحليله وتفسيره واستنباطه، وذاك في صنعته، وفي طبه، وغير ذلك من عطاء الله تعالى الذي لا حَدَّ لحدوده، وقد يجمع للعبد بين فضائل، فهو المتفضل سبحانه وتعالى على عباده بما يشاء من العطاء. مما يُوجب على العباد وجوب سؤال الله تعالى من فضله، وعدم الحسد للغير بما وهبهم الله تعالى من النعم، فهو الذي وهب بحكمته واصطفائه لعباده. وبأن لا يترفع ولا يتطاول أو يتكبر بما وهبه الله تعالى به على غيره، فإن الوهاب هو الله عَزَّ في علاه، وليس الإنسان هو الذي وهب نفسه، بل هو اجتهد في الأسباب، والله تعالى هو الذي مكنه مما اكتسبه وأخذه بالأسباب، وهو الذي سخر وطَوَّع له الأسباب، ودفعه إليها أخذاً وإلماماً بها.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا

لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى عظيم امتنانه على عبده ونبيه داود عليه السلام، وما مدحه به من عظيم الإنعام عليه، عطف على ذلك أحداث قصة عجيبة وقعة له. فقال تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ هل جاءك ووردك خبر المتخاصمين اللذين تسلقا سور المكان الذي يتعبد فيه عبدنا داود عليه السلام؟ سؤال يستثير الانتباه، والتعجب من أمر لم يسبق معرفته، فهو سؤال يشد الانتباه لهذا الحدث، مِنْ أن يتسلق خصمان على نبي الله داود في مكان عبادته. بما يفيد أن أمراً جللاً كان عندهما، وخصومة قوية، حتى أنهما لم يصبرا حتى يحين موعد فتح باب السور. فابتدأ الله تبارك وتعالى تلاوة القصة بسؤال مُوجَّه للرسول صلى الله عليه وسلم، وبصياغة تستوعب كل مخاطب، وهو سؤال تعجيب، لبيان عظمة أحداثها، وليستثير به ذهن الْمُخَاطَب، وتشويقه لمتابعة أحداثها العظيمة، وفوائدها الممتلئة بالدروس والعبر. ولبيان أن الأمور والأحداث في الكون كثيرة، ومتنوعة الأوجه، وأنها عظيمة الفوائد لمن تدبرها واتعظ بها.

وبدأ البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ ﴾ هل بلغك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، أو أيها الْمُخَاطَب ﴿ نَبَؤُا۟ ﴾ أي: خبر نبي الله داود عليه السلام، عندما تسور عليه المتخاصمان المحراب. ولفظ ﴿ ٱلْخَصْمِ ﴾ يعني: أن هناك خصومة. ولم يذكر تبارك وتعالى من هما المتخاصمين؛ لأن العبرة والمضمون متعلق بموضوع الحدث مع داود عليه السلام، وليس مع ماهية المتخاصمين، واقتصر البيان على تسميتهما بالمتخاصمين فقط. لتعيين أن المقصد والمهم في القضية هي المخاصمة والنزاع بينهما، وحاجتهما لمن يقضي ويحكم بينهما.

ثم بين وأوضح تبارك وتعالى أن دخولهما لم يكن مع الباب، بل تسوروا البناء ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ حين تسورو،ا أي: تسلقوا البناء، فدخلوا على داود وهو في محراب عبادته، ولم يدخلوا من الباب، بما يفيد أن الباب كان مغلقاً، وأنه ليس وقتاً لاستقبال الناس. أو أن داود عليه السلام كان منعزلاً بالعبادة عن الناس.

وكلمة ﴿ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ تعني المسجد الذي يتعبد فيه داود عليه الصلاة والسلام، وهو أيضاً مقدمة كل مجلس، ومقدمة فناء البيت. مما يدل على أن المكان كان مسوراً، وله باب، وأن الباب كان مغلقاً. وفي اعتلائهم ما يدل على استعجالهم، وذلك لشدة الخصومة التي أودت بهما إلى هذا التصرف. ولم يطيقا الصبر حتى يُفتح الباب، ويحين موعد جلوس نبي الله داود للناس عليه السلام للقضاء في أمورهم وشؤونهم التي تُعرض عليه. مما يبين

أن بعض الناس قد يتصرف بما يراه مناسباً له، فيبين ويُظهر الحدث كيف تصرف نبي الله داود معهم. ليتصور ويضع المخاطَب كل الاحتمالات التي يمكن أن تكون في ذهنه وتجول في خاطره أمام ما سيكتشفه من تصرف داود عليه السلام، ليتعلم منها الإنسان كيف يتعامل مع التصرفات الخارجة عما يجب أن تكون عليه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد ذكر المفسرون ههنا قصة، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. وأضاف رحمه الله تعالى: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدُّ علمها إلى الله عَزَّ وجل[1] مما يفيد أن يتم تفسيرها والإفادة منها وفق ما وردت، دون أن يُدْخِل فيها إضافات لا دليل عليها. وهذا هو الحق.

ثم يعرض البيان الكريم مفاجأة داود عليه السلام بهما، وكيف تلقاهما، وهما بهذه الهيئة وبهذا الأسلوب المفاجئ له، وإتيانه مع غير الباب المخصص للدخول ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٖ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ فاذكر حين دخل الخصمان على داود عليه السلام من غير إذنه، وهنا حصل الفزع له ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي: خاف وارتاع، لأنهم دخلوا عليه فجأة من غير استئذان، والباب مغلق، وذلك بتسورهم المحراب، فهو تصرف مخيف. ودلالة الفزع أوسع من دلالة الخوف ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ فالفزع يشمل المفاجأة، وأثرها المقترن بالخوف، فيحصل تبعاً له الاضطراب. وفي هذا دقة في دلالة الكلمة المعبرة عن الموقف بأفضل من كلمة الخوف في هذا المقام. وهذا من الإعجاز البياني في دلالة ودقة ألفاظ القرآن الكريم. مما يبين أن النفس البشرية مجبولة على الفزع والخوف، بالرغم من كونه نبي، ومن ذي الأيدي، أي: المتصف بالقوة في القول والأداء، ورباطة الجأش. ليتبين أن الأنبياء والمرسلين لهم الطبيعة البشرية في الأصل، ولكن لله تعالى عنايته الخاصة بهم، لما اختصهم به من بين عباده بالنبوة وما يلحق بها من الإكرام والحفظ والرعاية.

فلما شاهدوا روعه وفزعه، وما كان عليه من الوجل بادروه بالتطمين، ثم ببيان شأنهم بأقصر الأساليب ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ أي: اطمئن، وهنا لم يقولوا لا تفزع، بل قالوا: لا تخف. لأن الذي يظهر لهم من حاله هو الخوف، أما الفزع فهي الحالة الداخلية التي يشعر بها المفزوع. ثم تابعوا بالإفصاح والبيان لشأنهم، وسبب مجيئهم ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٖ ﴾ نحن طرفان، بيننا خصومة، أي: منازعة، بسبب أنه ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٖ ﴾ فأظهروا المشكلة المحصورة في بغي بعضهم على بعض. والبغي هو: الجور والظلم، وهنا لم يقل كل واحد منهما: فلان بغى وجار عليَّ، وادَّعى أنه المظلوم، والطرف الثاني هو الظالم، بل تساويا في وصف ما

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤/٤)

حصل بينهما. بما يفيد أنهما ينسبان التعدي إلى نفسيهما مقاسمة ومشاركة. مما يدل على أن أمرهم وشأنهم غريب وعجيب. فهذا ملخص المشكلة التي عرضاها على داود عليه السلام.

ثم استرسلا وتدرجا في الكلام إلى المطلوب من نبي الله داود عليه السلام ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ فالمطلوب منك يا نبي الله هو الحكم بيننا ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ فنطلب منك أن تقضي بيننا ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الذي هو العدل. وكذلك ﴿ وَلَا تُشۡطِطۡ ﴾ وهو الحيف والميل، بما يقع به الظلم على أحدهما، فلا يكن هناك حيفاً ولو كان يسيراً على أحدنا. مما يفيد: أنهما متفقان على طلب العدل. ويريدان كمال الحكم العادل بينهما. ثم تدرجوا إلى ما يريدونه من الرشاد في الحكم ﴿ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ فانصحنا ودلنا إلى الحل العدل الذي هو: الوسط، لأن دلالة ﴿ سَوَآءِ ﴾ تفيد الوسط، أي وسط الشيء. وسُمِّيَ الوسط سواء، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب[١] فيكون معنى ﴿ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ الحل الوسط، والطريق الوسط، الذي هو العدل والحق. لأن الحق يمثل المركز. وطرفي المركز هو البعد عن الحق. وكلما بَعُدَ الْحُكمُ عن المركز بَعُدَ عن الحق بقدر ذلك البعد. مما يدل على محبتهما للعدل، وأنهما لا يرغبان في الانتصار على بعضهما البعض، بل كل واحد منهما يرغب في كمال العدل من غير رغبة ولا نية لهما في أن ينتصر بعضهم على بعض. بل يريدان الحق. فأمرهما عجيب، يستحق أن يتعجب من حالهما الإنسان.

وهنا لم ينهر داود عليه السلام المتخاصمين لتسورهم المحراب، وعدم الاستئذان، ولم يؤجل موضوعهما، بل تركهما يستطردان في القول، وهذا من كمال قوته على نفسه، وسماحة أخلاقه، وقوة تحمله، ومواجهته الأمر بما أعطاه الله تعالى من الحلم حيال ما يعترضه. مما يُعَلِّم الإنسان كيف يواجه المفاجآت والمواقف. وهنا استرسل الخصمان في شرح القضية. بما يُعلم الإنسان منهجية عرض القضية والمخاصمة على الغير من أجل طلب الحكم. فقد استهلوا كلامهم بالتطمين، ثم خلاصة ومضمون القضية، في ملخص وجيز. ثم الانتقال إلى الأمر المطلوب من داود عليه السلام من العدل. ثم الاسترسال في التفصيل لقضيتهم.

وهي ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾ فبدأوا بالتعريف عن العلاقة التي بينهما ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي ﴾ فقد تكون علاقة الأخوة قرابة حقيقية، وقد تكون أخوة في الدين، وقد تكون أخوة المصاحبة. بما يبين أن العلاقة بينهما في أحسن ما تكون من الترابط، وعلى أي وجه كان أصلها ومنبعها وأساسها من الأخوة في النسب أو الدين، أو المصاحبة. بما يفيد أن مقتضى هذه

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٦)

العلاقة الأخوية تستوجب بأن لا يبغي أحدنا على أخيه الآخر. كما تفيد أن البغي بين الأخوين هو أشد من غيره مرارة، لأن الأصل في الأخوة أياً كان أصلها بأن لا تكون منطوية على البغي، أو فيها شيء من التعدي والإضرار. وهما يريدان إزالة هذا البغي بالعدل المنصف، والبعيد عن الشطط والجور.

فأشار أحدهما وهو المتكلم عن الآخر باسم الإشارة، وسماه برابط الأخوة ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ هذا الذي معي هو أخي، وليس بغريب عني ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ يمتلك تسعاً وتسعين نعجة، بينما أنا أملك نعجة واحدة ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فهذا فيما نملك من النعاج، التي هي الأنثى من الضأن. وهنا أصَّلَا لمحور القضية. وقد ذكر بعض أهل التفسير: أن المقصود بالنعجة المرأة، فله تسع وتسعون امرأة، وأراد امرأة أخيه لحسنها وجمالها. وهذا لا يصح أبداً، وليس المقصود بالنعجة الأنثى من النساء، بل الأمر على وجهه وحقيقته، بأنها الأنثى من النعاج، لأن داود عليه السلام قال لهما فيما بعد ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ فلو كان المقصود أن يترك زوجته ليتزوجها الآخر لنتفت الشراكة بالمخالطة، لأنه لا شراكة في الزوجة، ولَمَا قال له داود عليه السلام ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ وكثيراً ما يحصل البغي بين الخلطاء، فهل ممكن يكون ذلك في المخالطة بين زوجات الرجلين؟ فانتفى بذلك أن المقصود بها الزوجة. لأن دلالة ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ تفيد المشاركة بينهما. وليس التخلي عنها نهائياً بطلاقها، كما يدل على ذلك ما بعدها من البغي بين المتشاركين والمتخالطين ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ مما يفيد أنه يحدث بالمخالطة البغي الذي يؤكد أنها المشاركة التي قد يحدث بها النزاع. وهذا لا يمكن حتى في الطبيعة البشرية التي فطر الله تعالى الناس عليها، بأن يصل الحال بينهما إلى أن تنعدم الغيرة، ويشترك الرجلان في زوجة. فهذا لا يمكن أن يكون في شأن النساء. ولا يرضى به نبي الله داود عليه السلام. مما يستبعد بهذه الدلالة أن يكون المقصود بالنعجة هي المرأة حقيقة. مما يستوجب أن تجري الآيات القرآنية على مقصدها ومجراها إلا بنص من الكتاب أو السنة الثابتة.

ثم بعد تأصيل محور القضية انتقل المتحدث إلى ما دار بينهما بعد ذلك ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: طلب أن أدعها له ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: أتركها ودعها لي، واجعلها تحت كفالتي ومسؤوليتي، فأطلب أن تتنازل لي عنها، واجعلها تحت ملكي، وكان متكلماً بارعاً في بيانه وأسلوبه ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ وغلبني في القول، ودواعي كفالته لنعجتي، حتى بلغ ببيانه تحصيل مُراده، فأدركها مني بما كان منه من القول الذي لم أستطع أن أمتنع به عن مطلبه. بما يفيد أنه بارع في الكلام، وفي إظهار العلل والأسباب التي يجمع بها غنمة أخيه الواحدة

مع أغنامه التي بلغت تسع وتسعون نعجة. والنعجة هي الأنثى من الضأن. ومما يفيد أن صاحب النعجة الواحدة كان ضعيفاً في الكلام والاحتجاج. ومن دلائل البيان أن الطرف الآخر، لم ينكر شيئاً مما قاله صاحبه. إذ لم يعترض على شيء مما ذكره صاحبه، فدل ذلك على موافقته على قول أخيه، فلم يكن هناك أي وجه وعلة للاعتراض. فهما متفقان على الرواية المروية لنبي الله داود عليه السلام.

ثم انتقل البيان الكريم إلى جواب وحكم داود عليه السلام. فمباشرة أورد داود عليه السلام الحكم، كما قال تعالى عنه ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ فبدأ داود عليه الصلاة والسلام بالحكم على من طلب النعجة الواحدة وضمها إلى نعاجه، بأنه قد ظلم صاحب النعجة الواحدة ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ لقد ظلمك أخوك بسؤاله لك أن تتنازل له عن نعجتك. ثم أشار إلى سبب هذا الحكم ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فَعَلَّل سبب الظلم بما يكون من البغي، وهو التعدي، والجور على الطرف أو المخالط الآخر من الشركاء. وذلك بحدوث الجور والتعدي بين ﴿ ٱلْخُلَطَآءِ ﴾ وهي المخالطة بالشراكة في المال. وجعل البغي كائناً ومحتملاً من أي طرف من الخلطاء ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وهو الجور والظلم بالتعدي على حقوق الشراكة بين الأطراف. ولم ينص على أنهم كذلك، وأنهم من ذلك الصنف، بل قَعَّد قاعدة لسلبيات المخالطة والمشاركة، لينطلق منها.

ثم استثنى من ذلك فئة من الخلطاء، وهم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فالذين اتصفوا بهاتين الصفتين لا يكون منهم البغي والجور. فالذين ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي المؤمنون بالله تعالى وبأركان الإيمان جميعها، والتي منها الإيمان باليوم الآخر. فإنه لقوة إيمانهم بالحساب والجزاء من الله تعالى يوم القيامة، فإن ذلك الإيمان يدفعهم إلى الحق ويمنعهم من البغي على خلطائهم، فيتحرزون من الظلم، ويتحرون العدل فيما بينهم. والصفة الثانية لهم، هي: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قيامهم بما أمر الله تعالى به من العبادات، وأداء الأحكام، واتباع شريعة الله تعالى. فهذا النوع من الناس يمنعهم إيمانهم، وعملهم بالصالحات من ظلم الناس. مما يبين أثر تعاضد خصلتي الإيمان وعمل الصالحات على ضبط سلوك وتصرفات من التزم بهما. فدين الله تعالى خير ضابط لسلوك وفكر وتصرفات الإنسان. ومما يفيد أنه مقياس يقيس بهما الإنسان تصرفه. فإن وجد في نفسه تَوَقِّي من ظلم الغير، عرف من ذلك أنه متصف بهاتين الصفتين العظيمتين. وإن رأى أنه لا يأبه ولا يهتم من أن يحصل منه الظلم لغيره، فعليه أن يراجع إيمانه، والتزامه بطاعة ربه المتمثلة في العمل بالصالحات.

ثم أوضح ندرة هذا الصنف من الناس ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ وقليل من الناس من يتصف ويلتزم بهاتين الصفتين، ويقوم بهما خير قيام. مما يفيد أن الصالحين الذين لا يظلمون هم القلة النادرة، وأن أكثر الناس غائبين عن الصلاح، فعلى الغالب لا يؤتمن أحد عند المخالطة والمشاركة، مما يُوجب التوقي والحذر. وبما يفيد إن كنتما من هذا الصنف فأنتما على خير في المخالطة، وإن كنتما على غير ذلك فيسوف يتحقق البغي بينكم

وبعد قول داود عليه السلام بذلك القول للمتخاصمين ارتاب من أن الأمر اختبار له من الله تعالى ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ أي: أيقن وعلم أنَّ ربه قد اختبره وابتلاه بذلك الموقف، وتلك القضية، ليتنبه إلى شأنه الذي ابتلاه الله تعالى بسببه لهذا الموقف. ولعل هذا ما جعل البعض من أهل العلم يقول: بأنهما ملكان قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال المفسرون: كانا ملكين، وقيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام، أتياه لينبهاه على التوبة[١] من أمر حدث منه عليه السلام. وقد لا يكونا ملكين، بل اثنان من البشر، لأنهما تسورا المحراب للوصول إلى داود عليه السلام، والتسلق والتسور من طبيعة البشر، وليس من طبيعة الملائكة، لأنهم لا يحتاجون إلى ذلك، لما لهم من القدرة. فإنهم هم ينزلون في المكان نزولاً. ولا يحتاجون إلى التسور والتسلق.

وهنا لم يبين تبارك وتعالى محور الفتنة، لحكمة أرادها الله تعالى. ولأنها ليست محور الأمر الذي يريد الله تعالى أن يُعَرِّف به الْمُخَاطَب، فهي ليست ذا شأن للمخاطَب حتى يعرفها. فالمراد هي: الفوائد من هذا الحدث. وأما ما كان من اجتهادات بعض أهل العلم فإنها ليست قطعية، مع أن الكثير مما قيل لا يمكن أن يحدث من نبي يُوحَى إليه، مما يلزم احترام الأنبياء وإجلالهم عن الإسرائيليات، والأخبار التي لا أصل لها في الكتاب والسنة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد ذكر المفسرون ههنا قصة، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. وأضاف رحمه الله تعالى: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يَرُدَّ علمها إلى الله عَزَّ وجل[٢] مما يفيد أن يتم تفسيرها والإفادة منها وفق ما وردت، دون أن يُدْخِل فيها إضافات لا دليل عليها. مما يجب أن يكون التحليل وفق السياق، من غير خروج به عن النص، حتى تقتصر على ما يمكن أن تستوعبه من فوائد.

وهو الأمر الذي يفيد أن الأنبياء عليهم السلام قد يُفتنون ويُبتلون ويُختبرون لحكمة أرادها الله تعالى. فكيف بمن هم دونهم. وأن فتنة واختبار الأنبياء ليس من باب الشك والريبة فيهم، ولكن لتعليمهم وتنبيههم عن أمرٍ ربما غاب عنهم. أو تذكيرهم بشأن غفلوا عنه. لأنه لا يمكن أن يتعمد النبي المعصية، فإنهم أنبياء الله تبارك وتعالى. وربما تلك الفتنة التي هي ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ هي ظنه بالخصمين أنهما يريدان به شراً، حيث

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٨/٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤/٤)

فزع منهما، ثم تبين أنهما متخاصمين. ومن الاحتمالات التي يمكن أن تكون هي الفتنة، هو انشغال داود عليه السلام بالنوافل من العبادات عن النظر في قضايا الناس، وهو الخليفة المسؤول عن غيره، مما دعا المتخاصمين إلى أن تسوروا المحراب، فأدرك داود عليه السلام حاجة الناس للقضاء بينهم، وأنه وقع في ذلك الخطأ. خاصة وأن ورد التنبيه والتنويه من الله سبحانه وتعالى له بأنه خليفة ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على ما سيأتي إن شاء الله تعالى. ففي ذلك تنويه بأنك خليفة، وعليك مسؤوليات كثيرة وعظيمة تجاه الناس. مما يبين أن القيام بمصالح الناس هو من طاعة الله تعالى، وأنه عبادة لله عَزَّ وجل إذا صحح الإنسان من نيته. وأنه يجب ألا يفرط الإنسان فيما كلفه الله تعالى به، وما التزم به من الأعمال، فيحتسب في ذلك الشأن عند الله تعالى.

وهنا قام داود عليه السلام بأمور تعبدية لله تعالى، فأولاً: بدأ بالاستغفار ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ فأخذ يستغفر، بما يفيد حاجة الإنسان لربه، ولمغفرته، وأن الاستغفار هو طلب محو الذنوب، وسترها، وإزالة ما يترتب عليها من العقاب. فإذا كان هذا حال الأنبياء فكيف بحال غيرهم، فإنهم أحوج في كل شيء، ومنه التوبة. وفي استغفار داود عليه السلام دليل على أن الاستغفار وسيلة لمحو الذنوب. ثم بعد أن استغفر فزع إلى السجود ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ فسجد لله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى وغيره: أي: ساجداً، وعُبِّرَ بالركوع عن السجود[١] وربما حصل منه الركوع والسجود المعبر عن الصلاة. ثم تاب لربه بإنابته كما قال تعالى ﴿وَأَنَابَ﴾ فرجع لربه من ذنبه بالتوبة، أي راجعاً وملتمساً طلب إرضاء ربه تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن امتنانه وكرمه ورحمته بنبيه داود عليه السلام، فقال عَزَّ وجل ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فقد بادر الله تعالى نبيه داود عليه السلام باستجابة استغفاره، فغفر له، وصفح عنه، ومنحه عظيم الأجر والمنزلة في الدنيا والآخرة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ فغفرنا له ذلك الذي كان من داود عليه الصلاة والسلام، أي: الذنب الذي استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ وله عندنا أيضاً المنزلة العالية، لأن الزلفى تعني القربة والمكانة والكرامة، والمنزلة العالية، وكذلك له ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وأحسن وأفضل المصير والمرجع الذي يرجع إليه في الآخرة. مما يبين أن الله تعالى كريم في تعامله مع عباده الصالحين، فيغفر لهم، ويرفع منزلتهم، ويثيبهم بأحسن الثواب في الآخرة. وأن على المؤمن بأن لا يقنط من رحمة ومغفرة وكرم الله تعالى، فإنه رحيم، يحب التوابين والمستغفرين والأوابين.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٤٢٦)

ثم يختتم اللهُ تبارك وتعالى هذا الجزء من قصة داود عليه السلام بالتوجيهات العظيمة في الحكم والعدل، وضبط العواطف، والتحذير من مخالفة شريعته سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بالنداء مع تسميته باسمه عليه الصلاة والسلام ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته التكريم لداود عليه السلام، بأن يناديه سبحانه وتعالى، ويسميه باسمه، فهو خطاب عظيم عزيز لمن حظي به، كما فيه لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. فإن أسلوب النداء يستدعي الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب من رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عبده داود عليه السلام بهذا النداء الكريم، وبهذا اللطف العظيم وهو ربه وخالقه ومولاه، والخلق عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب، أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم يبين تبارك وتعالى لداود عليه السلام نعمة الخلافة والولاية التي امتن الله تعالى بها عليه ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فقد مكناك بمنتنا وفضلنا أن تكون خليفة في الأرض، أي: حاكماً. وسماه خليفة ﴿ خَلِيفَةً ﴾ لما في دلالة الخليفة من المعاني والمقاصد العظيمة. فالخليفة هو الذي يخلف غيره، ويخلفه من بعده غيره، وبما يفيد عدم دوام الخلافة، فهي أمر محدود المدة والزمن. بما يفيد استثمرها واستغلالها في طاعة الله تعالى من كل وجه، وبأن لا تضيع الفرصة من بين يديك. وقد نسب الله تعالى ذلك المنح والعطاء له عَزَّ وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فنحن الذين جعلناك خليفة، فأبان وأظهر ذلك ربنا تبارك وتعالى بضمير المتكلم ﴿إِنَّا ﴾ الذي يفيد التفخيم والتعظيم لجناب ربنا عَزَّ وجل، ثم تكرر مع فعل الجعل ﴿ جَعَلْنَـٰكَ ﴾ لبيان المزيد من التفخيم والتعظيم، وللمزيد من الإظهار لعظمة من أعطاك ومكنك مما أنت فيه من الخلافة. مما يفيد أن كل مُلك هو بيد الله تعالى، فلو شاء ما تحقق له ولا لغيره. مما يُوجب شكر نعمة الولاية بالطاعة لله تعالى، وتسخيرها في مرضات الله عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان أن حصر الله تعالى تلك الخلافة في الأرض ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إذ ليس الخلافة والحكم إلا في الأرض، وأما في الآخرة فلا

خلافة لأحد على أحد، ليتبين نعمة الآخرة، وأن الناس لا يحتاجون من يسوسهم، بل يعيشون وفق ما طبعهم الله تعالى عليه.

ثم بعد أن بين الله تبارك وتعالى لداود نعمة الخلافة، أتبعه بالتوجيه الحكيم لما يلزمه في الحكم بين الناس. بما يفيد أهمية التدرج في البيان والتوجيه. فقال جَلَّ في علاه ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ فليكن حكمك بين الناس بالعدل، مما يبين ويفيد أن الحق هو العدل، وأن العدل هو أصل من أصول الحق، لأن فيه إحقاق الحق بين المتحاكمين والمتخاصمين والمختلفين. وورد البيان بصيغة الأمر، لإفادة الوجوب القطعي. مما يتعلم به كل من يحكم بين الناس أن عليه إحقاق الحق الذي هو العدل. كما يفيد البيان بأنا ملكناك ومكناك لتحقيق العدل بين الناس، بإقامة شريعة الله تعالى. وأن امتناعك عن الناس بنوافل العبادة ليس هو المقصد، مما يبين أن التكاليف بالأعمال تجاه الآخرين لا تتعطل بسبب نوافل العبادة. ولعل هذا هو السبب في كونه أناب إلى ربه بالتوبة، بعد أن تسلق المتخاصمان عليه سور محراب العبادة، ليظهر الترابط في أجزاء الحدث، وبيان العلاقة بين العبادة وبين حقوق الناس. وأن أداءها عبادة، كما يظهر أهمية معرفة الأولويات وترتيبها الترتيب الصحيح الذي يوافق مراد الله عَزَّ في علاه.

ثم نهاه سبحانه وتعالى عن التأثر بالمؤثرات التي تنحرف بالعدل إلى الشطط، وتُخرجه عن الحق، فتجعل الحاكم أو القاضي ينحرف عن العدل إلى الشطط، فيحصل به الظلم والتعسف، والفساد في الأرض. فقال تبارك وتعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ لا تتابع هواك وميولك وعواطفك، ولحن القول وزخرفه، لأن البعض أقوى في الكلام، أو في الاستضعاف أمام الحاكم، من أجل استمالته في الحكم له، ولا تتأثر بشدة البعض في العرض لأقواله، فيبغضه الحاكم، ويتحامل عليه، أو اتباع هوى قبول شفاعة الغير، أو هوى التعاطف مع الغير للقرابة أو الصداقة، أو لأي سبب كان من الأسباب التي يحدث بها الجور في الحكم. فقد جاء البيان عاماً ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ ليشمل كل ما يؤثر على عدم العدل وإحقاق الحق من جميع أصناف ومفردات الهوى.

ثم يبين تبارك وتعالى أثر اتباع الهوى، ومخاطر أثره على معصية الله تعالى ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيضلك الهوى عن الطريق المؤدي إلى رضى الله تبارك وتعالى، مما يفيد ويبين أن الْجَوْرَ وعدم العدل ليس سبيلاً ولا طريقاً إلى لله تعالى، بل هو طريق لغضب الله عَزَّ وجل. فقد أفاد قوله تعالى ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إظهار وإعلام للمصير الذي يؤدي إليه اتباع الهوى. بأنه ينحرف بصاحب الهوى عن مراد الله تعالى وطاعته ومرضاته عَزَّ وجل. بما يبين خطر الهوى على القاضي، وعلى الحاكم، والخليفة، والرئيس، والمرؤوس، بل وعلى كل أحد من الناس، فإن الهوى يصد عن سبيل الله تعالى. وجملة ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تفيد

دلالتها: أنها طريق الله تعالى، ومنهج الله جَلَّ جلاله، ومراد الله سبحانه وتعالى، ودين الله عَزَّ وجل، وشريعة رب العالمين، والطريق الموصل إلى مرضات الله سبحانه وتعالى، وأنه السبيل الموصل إلى الجنة، والنجاة من الخزي والنار وعموم العذاب. فإن النجاة كائنة ومتحققة في الأخذ بسبيل الله تعالى، والحذر من الهوى في كل أمر وشأن.

ثم يختتم الله تعالى ذلك التوجيه ببيان محصلة اتباع الهوى، وعلة النهي عن اتباع الهوى، وعاقبة من يتبعون الهوى، ويتركون سبيله عَزَّ وجل، ويتجهون لأهوائهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ فالذين يتيهون عن سبيل ربهم لهم عذاب متصف بالشدة. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ ﴾ أي: ينحرفون ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ عن دين ربهم تبارك وتعالى وعن شريعته وأحكامه، من أجل متابعة ما تهواه أنفسهم ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ ﴾ لهم عذاب عظيم، لا يعلم قدره وشدته إلا الله سبحانه وتعالى، فإنه موصوف بالشدة، التي تبين عظمته وقوته.

ثم يبين سبحانه وتعالى العامل والدافع الذي يدفعهم للضلال عن سبيل ربهم سبحانه وتعالى، وهو ﴿ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ فقد نسوا اليوم الذي يحاسب اللهُ فيه الخلائق على ما كان منهم في الدنيا، أي: نسوا يوم القامة، ونسوا محاسبتهم ومجازاتهم على ما كان منهم من الظلم والجور. مما يفيد: لو أنهم كانوا يتذكرون ذلك اليوم، لاستعدوا له بالعدل والصلاح في أنفسهم، ومع غيرهم، ولكان منهم الاجتهاد في الوقاية والحذر من ذلك اليوم. مما يفيد أن من أقوى الأسباب للاستقامة هو أن يكون الإنسان يقظاً، ودائم الذكر ليوم الحساب، فإنه يدفعه لسلوك الحق وتحريه بطاعة الله تعالى، والبعد عن كل ما يُغضب الله عَزَّ وجل، صغيراً كان أو كبيراً. مما يبين أهمية تربية النفس على اليقظة والانتباه ليوم الحساب، وأهمية تذكير الناس بيوم الحساب والجزاء، فهو الرادع للإنسان عن هواه.

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان كمال حكمته جَلَّ شأنه في خلقه للسماوات والأرض وما بينهما، فقال تبارك وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إن ربكم لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما ﴿بَٰطِلًا﴾ أي: ليس للعبث واللهو واللعب. ليخالف بها الحق، وبهذا النفي للباطل ما يُثبت بالمقابل له أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما لحكمة وغاية عظيمة، قد انتفى منها الباطل بجميع أنواعه ودرجاتها، وبما يؤكد كمال الحق فيما خلق سبحانه وتعالى. فقد خلق الكون لعبادته، ولإظهار كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة علمه، وأنه بديع السماوات والأرض وما بينهما. وأن غيره مخلوق له عَزَّ وجل. وبالتالي فإنه هو المعبود جَلَّ جلاله، لأن كل شيء هو خلق من خلقه، فلا يجوز أن يَعْبُد المخلوق مخلوقاً مثله، ويترك الخالق، أو يُشرك مع الخالق مخلوقاً آخر. وفي هذا غاية التقرير بوحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، التي منها البعث، وما أخبر به من مخلوقات الغيب، كالجنة والنار، والملائكة، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى.

وقد جمع قوله عَزَّ وجل ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ جميع الخلق بأكمله. وتضمنت دلالة ﴿خَلَقْنَا﴾ الإيجاد والتكوين والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما فوقها وما حملت وما حوت، وقد جمعت كلمة ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ جميع ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يشاهده مما غاب عنه، فمما يشاهده الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما لا يراه كالملائكة، وما يحسه الإنسان ولا يراه كالرياح والهواء، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، لقصور حواسهم عنه، وأما دلالة كلمة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، وما بداخلها، وما يخرج منها، وما يُستخرج منها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، والمعادن وأنواعها، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى. وأكدت كلمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما نراه، ومما لا نراه، وما نحسه ولا نراه كالهواء.

وهذا النفي من الباطل الذي قرره الله سبحانه وتعالى عن جميع ما خلق ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ هو بعكس وضد اعتقاد أهل الباطل ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فالذين كفروا يعتقدون أن هذا الخلق هو من أجل اللهو واللعب والعبث، لأنهم يعتقدون أنه لا حساب ولا عقاب، فلا يؤمنون بيوم القيامة، ولا بالجنة، ولا بالنار، فمدار الدنيا قائم عندهم على استغلالها للعب والعبث والاستمتاع المطلق بلا حدود ولا ضوابط. مما يفيد أن هذا الظن من الكفرة جعلهم يستخدمون الحياة الدنيا وما في الكون

كوسائل للفجور والعبث واللعب. مما يبين أثر المعتقد على السلوك، وأن سلوك ومسلك الإنسان يعبر عن معتقده. وخطورة الفهم الباطل على علاقة الإنسان بربه، وبالكون كله، وبالحياة، وعلى فهمه لنفسه، وأهدافه وغاياته، وعلى تصرفاته مع غيره، وعلاقته بهم.

ثم يحذر ويهدد سبحانه وتعالى الكافرين بالنار التي ستكون عقاباً لهم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ فهلاك لهم بجهنم. فكلمة ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ تعني الهلاك للذين كفروا بظنهم الباطل ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ التي ستكون العقاب المقرر والثابت لهم في الآخرة. بما يفيد التحذير بالوعيد الكائن لمن أراد السلامة من عذاب النار. وهذا من عدل الله تعالى إذ لا يعذب أحداً إلا بعد البلاغ المبين. وقد كَمُل بلاغه عَزَّ وجل، بما أرسل من المرسلين، وبما أنزل من الكتب، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإنزال القرآن العظيم.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى أن عدله وحكمته اقتضت المفارقة بين المطيعين والكافرين، فقال عَزَّ مَن قائل ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ فهل نجعل العباد الذين آمنوا بربهم، وبجميع أركان الإيمان، وجاهدوا أنفسهم على طاعة ربهم عَزَّ وجل نجعلهم كالمفسدين في الأرض ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ سؤال استنكار من أن يكون هذا الشأن هو الحاصل، فصححوا عقولكم وأفهامكم إن كان هذا الشأن هو الذي تعتقدون. بما يفيد النفي لذلك الفهم القاصر من أنه هو الحقيقة.

وورد البيان من الله تعالى بصيغة السؤال الاستنكاري لمن اعتقد أن الغاية والهدف من الخلق هو الباطل، كما أنه تقرير بأن هذا الخلق ليس باطلاً البتة، بل لغاية وهدف. بل إن المساواة فيه لا تناسب الحكمة من خلق هذا الكون، وهذا التدبير العظيم. فإذا كان الصالحون لا يستوون مع المفسدين، فلا بد إذاً من حساب وجزاء، ولا بد لذلك الحساب والجزاء من يوم، ولا بد أن يكون ذلك في نهاية الدنيا. ولا بد أن يكون المحاسب والمجازي هو الخالق الذي خلق هذا الكون لغايته ولحكمته، وليس عبثاً وباطلا. فيقرر سبحانه وتعالى بذلك البيان حقيقة يوم البعث والحساب والجزاء من خلال تلك المفارقة بين الصالحين والفاسدين المفسدين، والتي تقتضي وتستوجب الحساب والجزاء. مما يدل على أن دين الله تعالى ومنهجه والقرآن الكريم قائم على الحجج والبراهين التي تسير بالعقول وفق المحاكمة التي تقتضي إثبات الحق، ونفي الباطل، وتنقل العقل من الجهل إلى العلم، وتعليم أهل هذا الدين منهج القياس والتحليل والفهم والاستنباط والاستنتاج. فهو دين العلم، وقائم على العلم.

ثم يعزز سبحانه وتعالى ذلك الاستنكار باستنكار آخر، وبصفتين دالتين على حقيقة الاعتقاد الحق وعلى حقيقة الاعتقاد الباطل، وكذلك على العمل وعلى ما يبين العلاقة بين القلب والسلوك، فقال عَزَّ وجل ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ فهل يمكن لخالق هذا الكون العظيم أن يجعل المتقين الذين يجمعون بين الخوف والرهبة من ربهم والتعظيم له سبحانه وتعالى والعمل بمقتضى الطاعة والرغبة في ثوابه وكريم عطائه، فنجعلهم ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾ الذين خرجوا عن الفطرة، فخلت قلوبهم من الإيمان والخوف من الله تعالى، فأصبح الفجور القلبي والفجور العملي مسلكهم. فالفجور هو الفسق، أي الخروج عن الفطرة، وعن الدلائل العقلية، وعن الأحكام الشرعية. ومنه انفجار الماء، أي انبعاثه وخروجه عن مكانه من الأرض. بما يعني خروج السلوك والتصرفات عن الحق، وعما يجب أن تكون عليه.

ومن جمال البيان ودقائقه أن السؤال التقريري الثاني ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ورد مستوفياً للسؤال الأول بخصيصتين تجمع محتوى القلب وما ينبعث عنه من القول والفعل. فدلالة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تستجمع وتستوفي مكنون القلب من الإيمان ومشاعر الخوف من الله تعالى، مع مشاعر حب الله جَلَّ جلاله، ومحبة طاعته، والعمل بها، ورغبة في ثوابه عَزَّ وجل، فهي مترجمة وجامعة لقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بينما دلالة الفجار ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾ تستجمع وتستوفي مكنون القلب من الإنكار والكفر، ومشاعر عدم الخوف من الله تعالى، ومشاعر عدم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، مع سيطرت مشاعر الشهوات والملذات على قلوبهم، ومن ثم على الفعال والاتجاه نحو المعاصي والإبحار في غمارها، فلا عندهم إيمان بالثواب ولا بالعقاب من الله عَزَّ وجل، فهي مترجمة وجامعة لقوله تعالى ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالفجور هو الفساد في الأرض. بل أعطت دلالة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بأنهم أينما حلوا وارتحلوا فيها فإنهم مفسدون فيها، فلا يأتي منهم الصلاح أبداً أينما ارتحلوا وحلوا، وأما ما قد يكون من ظواهر الصلاح منهم فهو من أجل أن يحققوا به الفساد، فهو مطية للعبث.

والتقوى والفجور في قوله تعالى ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾: صفتان متناقضتان ومتضاربتان، وتجتمعان في كون أن كل صفة منها تستجمع ما تحتويه دلالتها. كما تجمع بين ما يكنه القلب من اعتقاد، وما يكون من التصرفات والسلوك. أي: وما يجري بناء على ذلك الاعتقاد من التصرفات. وهي مقارنة تُظهر الفروق العظيمة بينهما، وتُظهر وجوب العدل بين من كان مبعث تصرفاته التقوى في الاعتقاد والأقوال والأفعال، وبين من كان مبعث تصرفاته الفجور في المعتقد والأقوال والأفعال.

ثم يقرر سبحانه وتعالى عظمة كتابه القرآن الكريم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ فإن القرآن الذي أنزلناه عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، غايته والغاية منه أن يتدبروا ويتفحصوا آياته التي امتلأت بالدلائل والبراهين التي يستوعبها ويعمل بها أولي العقول الناضجة. وبدأ البيان الكريم بالتعظيم للقرآن العظيم، فسماه ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ وهو مفرد، بما يفيد أنه إذا أطلق اسم الكتاب فلا يكون إلا القرآن الكريم، ومن عظمته أنه منزل من الله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول لتبلغ بيه الناس، وقد عين البيان بالتحديد والتعيين في الإنزال بأنه إليك ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ فلم ينزل منه شيء على غيرك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. فأنت المعني بتبليغه. ليفيد التشريف للرسول عليه الصلاة والسلام، وعظيم المنزلة والمكانة، بأن كان هو لا غيره صلى الله عليه وسلم الذي أُنزل عليه كتاب ربه القرآن العظيم، فأنعم وأكرم بها من منزلة عظيمة جليلة.

ففي الآية الكريمة بيان لصفات القرآن الكريم، مع الترغيب في الاستماع إلى مضمونه المملوء بالإعجاز البياني للحقائق، لأن بيانه ومنطوقه يؤكد أنه نزل من عند الله تعالى، فإن هذا القرآن هو﴿ كِتَٰبٌ ﴾ فأول صفة للقرآن الكريم أنه كتاب، ولا يسمى الكتاب كتاباً إلا إذا تضمن نصوصاً من الكلام، ولن يكون هذا الكلام لأحد غير الله تعالى، لأن الصفة الثانية تبين وتؤكد ذلك، وهي: أنه مُنَزَّل من عند الله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ والنزول يقتضي أنه جاء من العلو والارتفاع، الصفة الثالثة: أن الذي أنزله هو الله عَزَّ في علاه، فنسب عَزَّ وجل إنزال القرآن إليه ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ فالذي أنزله هو الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ فنزل به جبريل من السماء على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فنفى بذلك عن القرآن صفة البشرية قطعاً، والصفة الرابعة أنه مبارك ﴿ مُبَٰرَكٞ ﴾ أي بورك فيه، فجعل فيه البركة، وتعني البركة: الزيادة، فهو كثير البركة، وكثير المنافع، وكثير الفوائد. وقد ورد الوصف بالبركة عاماً ﴿ مُبَٰرَكٞ ﴾ فاستوفت جميع أنواع البركة، وجميع أوجهها، ولم تُحصر بركته في شيء محدد، ليكون نفعه عاماً على كل شيء، فأخذه بركة، والاهتداء به بركة، وقراءته بركه، وحفظه بركة، وللمريض بركة، وفي تعليمه بركة، ودارسته بركة، وتشريعه بركة، وتطبيق أحكامه بركة، وتفهمه بركة، فلا تُعد ولا تحصى جزئيات بركة القرآن الكريم.

ثم حدد وعين سبحانه وتعالى المراد والمطلوب من العباد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: ليتفكروا ويتأملوا آيات القرآن، فيتقرر عندهم بذلك صحتها، لِمَا فيها من أوجه الإعجاز البياني، والتشريعي المبهر في أحكامه لمن تأملها، فإنه سيظهر لهم أنه من كل وجه ليس للبشر فيه منطوق ولا مكتوب، وما هو إلا من عند الله سبحانه وتعالى. وأن من يدبر القرآن العظيم سيحصل على العلم الغزير الذي يهديه إلى الصراط المستقيم.

وفي هذا التوجيه الرباني دليل على أن تدبر القرآن الكريم طريق للحق لمن تدبره إلى أن تقوم الساعة، وأنه حُجة كافية، وهو إثبات بأن هذا دين الله تعالى، وأن الْمُرْسَل به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد كذلك أهمية التأمل والتدبر في كتاب الله العزيز الحكيم، فإنه هداية واضحة وكافية، وحجة باقية وقائمة على كل من يسمعه. فهو قاطع لمعذرة كل معتذر. مما يدل على أن هذا القرآن الكريم مُعجز، وأنه آية من آيات الله الواضحة البينة والمبينة، وسواء في دلالاته، أو في نظمه وبلاغته، أو في غاياته، وتشريعه وأحكامه وأخلاقه، ومواعظه وقصصه، بل وفي جميع توجيهاته في أمره ونهيه.

ثم يوجه سبحانه وتعالى أولي العقول الصائبة الصحيحة بأن ينتفعوا بكتابه، ويتعظوا بما فيه من المواعظ ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وليتعظ به أهل العقول السليمة الناضجة، التي تستمع الحق فتتبعه، وتعلم الشر فتنتهي عنه وتبتعد. وفي هذا دليل على أن من اعتنى بكتاب الله تعالى وحرص على تدبره وتعلمه فإنه من أولي الألباب الذين امتدحهم الله سبحانه وتعالى. كما في هذا ترغيب وتشجيع، وحث للتأمل والتدبر في مضامين كتاب الله تعالى، وعلى ما فيه من العبر والمواعظ والأحكام والتشريع، وما قصه الله تعالى في القرآن الكريم من قصص الأقوام السابقة، فإن فيه ما يكشف الطريق الصحيح، الذي تستضيء به العقول إلى منافعها في الدنيا والآخرة، وتتجنب به المخاطر والحواجب والموانع والصوارف التي تصدها عن الحق والخير في شأن الدنيا والآخرة.

وأن أولي الألباب إذا تفكروا وأمعنوا النظر فإنه يتبين لهم أن من جاء بهذا الكتاب العظيم هو نبي ورسول من عند الله تعالى إليهم، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم رجل أُمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا ينظم الشعر، ولا يستطيع أن يأتي بذلك العلم الرباني العظيم، بل لا يستطيع المخلوقين جميعاً ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله، سواء من حيث دقته، وتآلفه، وعدم تناقضه وتعارضه، أو من حيث بلاغته وإعجازه البياني، وتراكيب ألفاظه وكلامه، وحلاوته وطلاوة بيانه، وما فيه من مواعظ وعبر، وأحكام وأخلاق، وتشريع معجز في كل أمر، وفي كل نهي.

ثم يعود البيان مرة أخرى إلى شأن نبي الله تعالى، وما أنعم به على ولده سليمان عليهما الصلاة والسلام، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وأنعمنا على عبدنا ونبينا داود بولده سليمان، وكان نعم العبد، بما اتصف به من الرجوع لربه في كل أمر وشأن. بما يفيد متابعته لربه في أمره

ونهيه، والرجوع إلى التوبة والاستغفار عند الخطأ والغفلة. وجملة ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ تفيد الامتنان بالعطاء، فالهبة تكون اصطفاء من عند الله تعالى، ومنها النبوة، وغيرها من عطاء الله تعالى، فهو الوهاب الذي يهب لعباده الخيرات من الأرزاق، والدين، والصحة والعافية، والأعمار، والعلم والمعرفة، وغيرها من الهبات التي لا حصر ولا عَدَّ لها من كثرتها وتواليها على العباد. فنسأل الله تعالى الوهاب أن يهب لنا كل خير، ويدفع عنا كل شر.

فإن من كرم الله تعالى على عبده داود أن رزقه بسليمان عليهما السلام. ثم امتدحه ربه تبارك وتعالى بتزكية عظيمة منه جَلَّ جلاله ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ وهذا غاية المدح والتزكية لسليمان عليه السلام ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ فإنه مدح من الله تعالى، وتزكية، فأعظم بها من منقبة من الله تعالى له ولوالده داود عليهما الصلاة والسلام.

ثم علل سبحانه وتعالى كلمة المدح والثناء بجملة ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فإنه كان كثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، والطاعة والعبادة والامتثال لله عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان ورحابة دلالته أن المخصوص بالمدح محذوف ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ليستوعب الأب داود، ويستوعب الابن سليمان عليهما السلام، والأولى حسب السياق هو سليمان عليه السلام، فهو المخصوص هنا، لأن الله سبحانه وتعالى سبق وأن مدح عبده ونبيه سليمان فيما سبق. كم يعضد هذا دلالة الآية التي بعدها. فكلاهما ممدوح من الله تعالى بالثناء، ولكن من براعة السياق أنه يشمل الإثنين.

ثم يأتي التعليل الآخر الذي يؤكد ويبين استحقاق سليمان لثناء ربه عَزَّ وجل عليه، فقال جَلَّ شأنه في بيان ما كان من عتاب سليمان لنفسه عندما انشغل بحبه الخيل عن ذكر ربه سبحانه وتعالى ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ فإنه عالج ما كان منه بالتخلي عنها.

فبدأ البيان من ساعة العرض للخيل ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ واذكر حين عُرِضَت عليه وقت العصر تلك الجياد المتصفة بأحسن الأوصاف في خفتها ورشاقتها وسرعتها. وقد حدد البيان زمن الاستعراض لها، وما كانت عليه الجياد من الوصف، فقال تعالى عن زمن ووقت العرض لها أنه كان ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ وهو ما بعد الزوال، آخر النهار حتى التقاء أول الليل، أي: أن استعراضه للخيل كان وقت العصر، وتم تسمية وتعيين الخيل من خلال ذكر وصفها ﴿ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ﴾ استغناء عن ذكرها بالاسم، وذلك

لإظهار جمال وقوة ومهارة ما كانت عليه، فهي ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ التي تعني صفة هيئة الخيل وهي ترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر. فتقف على ثلاث قوائم، رافعة إحدى يديها عن الأرض، أو أن تجعل طرف الحافر على الأرض، كأنه قائم، أو واقف على ثلاث، وقد يفعل الخيل ذلك بإحدى رجليه. للدلالة على الخفة والرشاقة. ثم ذكر الوصف الآخر لها، بأنها ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ أي: السريعة، شديدة العدو، بما يدل على نفاستها. مما يبين شغف سليمان بحب الخيل، واستعراضها، لما في ذلك من القوة التي يتمكن بها من ملاحقة العدو، وصده، والاستقواء عليه، فالخيل الجيدة تُمكِّن الخيال والفارس من استثمار رشاقتها في تحقيق أهدافه القتالية.

ثم انتقل سليمان عليه السلام إلى تحليل تصرفه وانشغاله بالخيل واستعراضها، وأثر ذلك على فقده لذكر الله تعالى في ذلك الوقت الذي هو من أفضل الأوقات للذكر ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ فقال سليمان عليه السلام معاتباً نفسه ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: أنني انشغلت بحب الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ فقد التهيت باستعراض الخيل عن ذكر ربي، لأن وقت العشي من أوقات الذكر. بما يفيد العتاب والتأنيب لنفسه من هذا التصرف الذي قَصَّر فيه من ذكره لربه سبحانه وتعالى. فهو عتاب يستنكر على نفسه هذا التصرف. مما يدل على عمق التقوى لديه، ومحبته لربه عَزَّ وجل، ولا يريد شيئاً يشغله عن ذكر ربه جَلَّ جلاله، خاصة في الأوقات التي لا تُعَوَّض، لأن وقت العشي هو أحد أوقات ذكر الله تعالى.

ومن دقائق البيان أنه قال: أحببت حب الخير عن ذكر ربي، ولم يقل أحببت حب الخير عن حب ربي. فحبه لربه ثابت، ولكن قَيَّد وقَصَرَ ذلك الشأن على محبة الذكر الذي لا ينفي عدم القيام به نفي محبته لربه تبارك وتعالى. وكذلك من دقائق البيان أن ورد ذكر الله تبارك وتعالى باسم الربوبية ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ المربوب الذي يُصرف له ولغيره كل شيء من العبادة، والذي خلق فسوى، والمالك والمتصرف، والذي هو ربَّ كل شيء ومالكه، والذي أعطاني هذه النعم، والذي رباني بما أنعم عليَّ. كما أن في قوله ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ تعليل وقياس واستنتاج، فهو تعليل للسبب الذي أشغله عن ذكر ربه ذلك الوقت. وقياس يقيس به مستوى الحب، فتقديم الاستمتاع بالشيء على وقت ذِكرِه سبحانه وتعالى هو قياس يقيس به ذلك القدر من الحب لذكر ربه عَزَّ وجل. وهو استنتاج أدى به إلى لوم نفسه وعتابها، بأن لو كان حبه لذكر ربه أعمق لما انشغل بتلك العروض للخيل. فكان صريحاً وصادقاً مع نفسه. فصرح بأن حبه العظيم للخيل أنساه وأشغله عن الذكر. بما يفيد أن من قَدَّمَ شيئاً على طاعة الله تعالى فإن حاله هو حال من أحب ذلك الشيء

حتى أشغله وأنساه طاعة ربه. مما يعلم المؤمن بأن لا يقدم شيئاً على طاعة الله تعالى، ولا ينشغل بأمر عن طاعة الله عَزَّ وجل، وأن يكون المؤمن صريحاً مع نفسه، ولا يعتمد على تلمس المبررات. وإذا قَصَّر استغفر وتاب، وأناب وعاد للحق وتمسك به.

فقد انشغلت بها عن ذكر ربي ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ أي: توارت الشمس، بأن استترت بما يحجبها عن الأعين والأبصار. ولما أنه لم يتم تعين الذي توارى واختفى في السياق، فقد اتسعت شموليته ليستوعب أيضاً غياب الخيل، ليكون المعنى أيضاً: أنه استمر العرض حتى اختفت وتوارت الخيل عن الأعين بما سترها من حلول الظلام. ولا شك أن ذلك الوقت هو الوقت الذي تحتجب فيه الشمس عن الأعين، فيحتجب تبعاً له ما هو أمام الأنظار في ساحة العرض. فقد استوفت دلالة الآية الكريمة الحقيقتين معاً وبسياق واحد، وهذه من بلاغة آيات القرآن الكريم في إعجاز تراكيب ألفاظه البارعة إلى حد الإعجاز، بأن تستوفي كمال المراد، وبسياق واحد من غير تكرار. فسبحان الله العظيم الذي بلغ كتابه مبلغ كمال الإعجاز.

ومن جميل البيان المعبر عن حبه للخيل أن سماها بالخير ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وعني بهذا الخير في هذا الموضع: الخيل. والعرب فيما بلغني تُسمِّي الخيل: الخير، والمال أيضاً يسمونه: الخير(١) فسماها بأجمل مسمياتها، ليفيد قوة شغفه بها. ليعطي بذلك درساً في محاسبة النفس على التقصير مع الله سبحانه وتعالى. وليعطي أهمية المصارحة مع النفس، وعدم التبرير الذي يشجع النفس على مزيد التقصير، فلم يبرر ذلك بأنه يستعرضها من أجل الجهاد مثلاً. بل نظر لفوات وقت العشي، الذي لا يُعَوَّض. فكيف يستدركه بعد فواته. فالمؤمن هو الذي يحلل أفعاله وأقواله وفق مقتضيات الطاعة، وإنزالها منزلتها.

وبناء على هذا التحليل المرتكز والمعتمد على العبادة، وأهمية استثمار واستغلال الأوقات المخصوصة بما هي له، وعدم تفويتها بما يحب الإنسان ويعشق من الأمور المباحة. فهنا اتخذ قراراً وهو: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ فأمر بإرجاع تلك الخيل التي عُرِضَت عليه وقت العشي ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ أعيدوا الخيل عليَّ، وذلك بردها كما كانت أمامي ﴿ فَطَفِقَ ﴾ فشرع يفعل بالخيل ﴿ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ فيمسح بالسيف سوقها وأعناقها، كناية عن التأثر العميق بما كان منه عليه الصلاة والسلام. فيضرب بسيفه ﴿ مَسْحًۢا ﴾ أي: قطعاً ﴿ بِٱلسُّوقِ ﴾ أي: سيقانها. ﴿ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ أي: أعناقها. والمسح

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٣/٢٠)

هنا هو القطع، أي يضربها بالسيف، فيضرب سوقها وأعناقها. قال الحسن وقتادة وابن السائب: قطع أعناقها وسُوقها، وهو اختيار الغالب، والجمهور[١] ولم يفعل ذلك إلا وهو مباح له في شريعته، لأنه لا يمكن أن يعالج شأن الطاعة بالمعصية في حق سليمان عليه الصلاة والسلام، فَيُظهر اللهُ سبحانه وتعالى بهذا البيان مدى محبة سليمان لعبادة ربه، وطاعته، وأداء ما هو مطلوب منه، وأن كل شيء يرخُص أمام طاعة الله تعالى. بما يعلم الإنسان كيف يكون في طاعة ربه، بأن عليه أن يلوم ويعاتب نفسه عند التقصير، ويبتعد عن المبررات غير الصادقة، وغير الصحيحة، وأن من لوازم الطاعة لله تعالى هو لوم النفس بما يعيدها إلى الحق، وإلى ربها سبحانه وتعالى، والذي هو خير طريق، وخير علاج يقوم به المؤمن.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر الله تبارك وتعالى بابتلائه لعبده ورسوله سليمان في مُلْكِهِ، عليه الصلاة والسلام فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ولقد ابتلينا نبينا سليمان عليه السلام، بأن ألقينا جسداً على كرسيه الذي يجلس عليه للحكم والملك، ابتلاء له من ربه سبحانه وتعالى. إذ في إلقاء الجسد دلالة على ذهاب ملكه بذلك الجسد الذي ألقاه الله تعالى ومَكَّنه من الملك، ليدرك كل أحد أن الملك بيد الله تعالى، يهبه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، حتى لو أراده سبحانه لجسد لتحقق ذلك. ثم حصل من سليمان عليه السلام بعد ذلك أن رجع إلى الله تعالى بالتوبة عما حصل منه.

وقد بدأت الآية الكريمة بلام القسم وحرف التحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لإفادة تأكيد ما بعده من بيان. ثم أوضح تبارك وتعالى المغزى والهدف والغاية ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ اختبرنا وابتلينا سليمان عليه السلام في ملكه. وكانت الفتنة كما قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ فألقى الله تعالى بقدرته على الكرسي الذي يحكم منه مملكته ﴿ جَسَدًا ﴾ والجسد هو: مُكَوَّن جسمي. قال الأصفهاني رحمه الله تعالى: الجسد كالجسم، لكنه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٥/٦)

أخص. قال الخليل رحمه الله تعالى: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض، ونحوه[١] مما يبين أنه إنسان، وليس شيطاناً كما قال البعض. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقد ضعف هذا القول من حيث أن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان، حتى يظنوا أنهم مع نبيهم في حق[٢] ولذلك فإن أظهر وأقوى ما قيل في فتنة سليمان عليه السلام هو ما ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل. ولم تحمل شيئاً إلا واحداً، ساقطاً أحدُ شقيه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله) قال شعيب وابن أبي الزِّناد (تسعين) وهو أصح[٣] وحكى النقاش وغيره: إن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلباً للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه[٤] فالعبرة ليست في تعيين وتحديد مناط الجسد، ولكن في قدرة الله سبحانه وتعالى. ففي إطلاق صفة الجسد على من جلس على كرسيه، إشارة إلى عجز الجالس على كرسي سليمان، وأنه مع عجزه مكنه الله تعالى من الملك، ليكون في ذلك عبرة وموعظة بأن الملك والعطاء بيد الله تعالى. وأنه يجب على من أعطاه الله شيئاً من القيادة أو الملك بأن لا ينازعه غيره فيه، بل يجب إعانته. كما يفيد ذلك أهمية ربط وتعليق الأمور بمشيئة الله عَزَّ وجل، لأنها المعبرة عن الاستسلام لله تعالى فيما يعطي ويمنع، وفيما يُمَكِّن منه من الأمور والأعمال، وتحقيق النوايا والمقاصد. فقولها عبادة وخضوع واستسلام لله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بتوبة سليمان ورجوع ملكه إليه، فقال تعالى ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي: رجع إلى ربه سبحانه وتعالى، ثم رجع له ملكه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ سليمان. فرجع إلى ملكه بعد ما زال عنه ملكه وذهب[٥] والإنابة تعني الرجوع، لتشمل رجوعه إلى ربه سبحانه وتعالى بالطاعة والاستغفار، فأعاد الله تعالى له ملكه بقدرته وسلطانه عَزَّ وجل. مما يبين أهمية التوبة ومنزلتها، وأنه إذا حصل من الإنسان شيء من الخطأ أو التقصير فعليه المبادرة بالتوبة، لأن الله تعالى يحب الأوابين التوابين. كما يفيد ذلك أن على الإنسان بأن لا ييئس مهما بلغ به الأمر، فإن الذي أعطى وأخذ، هو الذي يعيد ما أخذ، بل يعيده بأحسن منه، فإن الأمر لله سبحانه وتعالى.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٩٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣١/١٥)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٤٨٣/٢) برقم (٣٤٢٤)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣١/١٥)

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٢/٢٠)

ثم يأتي تفسير إنابة سليمان عليه السلام إلى ربه تبارك وتعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ سأل الله تعالى أن يغفر له مغفرة مطلقة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي ﴾ لتشمل كل ذنب، وكل تقصير حصل منه، بما في ذلك الذنب الذي كان سبباً في ابتلائه، وغيره من الذنوب. ثم تلى تلك التوبة والمغفرة التي جعلها وسيلة ومقدمة لإجابة ما يطلبه، أن سأل ربه تبارك وتعالى مُلكاً عظيماً وعزيزاً على غيره. لأنه إذا غفر الله تعالى ذنوب العبد أصبح نقياً من موانع إجابة الطلب. ثم لم يقتصر طلبه عليه الصلاة والسلام على إعادة ملكه فقط، بل طلب ملكاً عظيماً ﴿ وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ ﴾ اعطني هبة وتفضلاً منك، لا استحقاقاً لي فيه ﴿ وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا ﴾ لأن الهبة عطاء من غير استحقاق، وكل عطاء من الله عَزَّ جل هو هبة منه تبارك وتعالى. وفي ذلك الطلب هو إعلام وإخبار بأن الملك لا يكون إلا من الله تعالى، فهو الذي يهب الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء. ثم وصف هذا الملك بأنه ﴿ مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ ﴾ ملكاً لا يُعطى مثله لأحد من بعده. ويكون كذلك بمعنى: لا يسلبه أحد مني بعد ما سبق من أخذه مني. ويأتي كذلك بمعنى: بأن لا يكون في عظمته لأحد بعدي. ويفيد هذا الدعاء شغف سليمان عليه السلام بأن يُسخر قوة ملكه في طاعة الله تعالى وفي الجهاد، وفي نشر دين الله عَزَّ وجل في الأرض. كما ورد في الحديث السابق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله)

ثم يعلل سبب مطلبه من الله سبحانه وتعالى المغفرة وعظمة الملك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ فلأنك أنت يا رب الذي تعطي بغير حساب، وبغير استحقاق، ولا أحد غيرك يعطي ما تعطيه أنت من العطاء في نوعه وكثرته، فإنني توجهت إليك وسألتك يا رب. فوصف ربه سبحانه وتعالى بالوهاب، الذي يفيد المبالغة في العطاء ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ أنت لا غيرك الذي يهب ويعطي بغير حساب، وبغير وجوب استحقاق. فالهبة تكون اصطفاء من عند الله تعالى، ومنها النبوة، وغيرها من عطاء الله تعالى، فهو الوهاب الذي يهب لعباده الخيرات من الأرزاق، والعبادة، والصحة والعافية، والأعمار، والعلم والمعرفة، وغيرها من الهبات التي لا حصر ولا عَدَّ لها من كثرتها وتواليها على العباد. فنسأل الله تعالى الوهاب أن يهب لنا كل خير، وما يرضا به عنا، ويدفع عنا كل شر.

فاستجاب الله تبارك وتعالى دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ فطوعنا له الريح تجري بما يأمرها به. ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾ أي: العاصفة

من الريح الشديدة. وقد اجتمع في هذه الريح: السرعة والشدة من القوة والبأس ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى ﴾ فالجريان دليل على السرعة، وكذلك امتثالها لسليمان عليه السلام ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ ﴾ تسير بما يأمرها به. كما أنها مُتَّصِفة بالطيبة ﴿ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ فهي رخاء في نفسها وعليه، وعلى ما يريد، وأيضاً هي خير عليه حيث ما ينزل ويحل من الأرض. فهي طوعة له في حملها له، وفيما يبعثها إليه، وما تجري به. فإنها تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسير شهر إلى آخر النهار. فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين. فهي تسير بالغداة الذي هو أول اليوم مسيرة شهر. إلى الزوال. أي: إلى منتصف النهار، فتقطع في رجوعها المسافة التي تستغرق شهراً، فإنها تقطعها في آخر النهار. فتسير بالعشي مسيرة شهر الذي هو الرواح، أي أن سرعتها في أول النهار سرعة مسيرة شهر، وفي آخره تسير مسيرة شهر من حيث الزمن، وذلك من قوة وشدة سرعتها. قال قتادة رحمه الله تعالى: تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسير شهر إلى آخر النهار. فهي تسير في اليوم الواحد مسير شهرين[١] ذهاباً وعودة.

ليتبين قدرة الله تعالى في تسخير الرياح لسليمان عليه السلام، وكذلك قوة ما منحه سبحانه وتعالى للرياح من تلك القوة من السرعة والحمل والسُّوق، وقوتها في حملها لسليمان عليه السلام. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: فكان يغدوا من دمشق فيقيل باصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسير شهر للمسرع[٢] وقال كذلك رحمه الله تعالى: لَمَّا شغلت نبي الله سليمان الخيل عن الصلاة فعقرها، أبدله الله خيراً منها، وأسرع، وهي الريح[٣] مما يبين عظيم النعمة التي أنعم الله تعالى بها على نبيه سليمان عليه السلام، كما يفيد ذلك أن من ترك شيئاً لله عَزَّ وجل عوضه الله تعالى خيراً منه. فيبين ذلك للعباد أن عطاء الله عَزَّ وجل لا تحده حدوداً أبداً، فعلى المؤمن أن يقدم طاعة الله تعالى على كل شيء، ليجد من الله سبحانه وتعالى ما يسره به، عاجلاً أو آجلاً، أو عاجلاً وآجلاً، وأن يخلص في ذلك لله تعالى، وليس من أجل تحصيل البديل. وهو إرشاد للعباد بقدرة الله تعالى التي ليس لها حدود، ومنزلة من أطاع ربه وأناب إليه عَزَّ وجل.

وكذلك من عظيم امتنان الله تعالى على سليمان عليه السلام أن سخر له الشياطين ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ وسخر الله تعالى لسليمان عليه السلام الشياطين، فمنهم المتخصصون في البناء ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٦/٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٣٥/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٦/٦)

فيبنون له ما يشاء من الأبنية الشاهقة والواسعة، ومنهم من يغوص في البحر ﴿ وَغَوَّاصٍ ﴾ يغوصون في البحر، فيستخرجون له خيرات البحر، كاللؤلؤ والمرجان، فاستوعبت خدمتهم له البر والبحر، فيعملون له ما يشاء، ويجلبون له ما يشاء. كما سلطه وأقدره على نوع ثالث من الشياطين ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ ونوع من الشياطين مربوطون بالأغلال. فسخرهم سبحانه وتعالى له، حتى مَكَّنَه من أن يقرنهم ويربطهم في الأصفاد ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أي: الأغلال، وواحدها صفد. لإفادة كمال التحكم حتى في المتمردين، بتصفيدهم في الأصفاد من الأغلال. ليدل على كمال قوة التسخير حتى قرنهم بالأغلال، فوهبه ربه تبارك وتعالى عظمة الملك الذي لن يكون لغيره من بعده أبداً.

ثم يخبر الله تعالى بتمام ما أعطى وامتن به على نبيه سليمان عليه السلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فقلنا لنبينا سليمان ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا ﴾ هذا هو عطاؤنا وامتناننا عليك، وهو جواب على ما سأل من مُلك لا ينبغي لأحد من بعده ﴿ فَٱمْنُنْ ﴾ فأعط مَن شئت، لأن الامتنان هو العطاء من غير مُوجب ولا استحقاق، بما يفيد سعة حرية العطاء، بحيث لا ينقص منه شيء لكثرة ما أعطاه ربه من الخير العظيم ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أي: أمسك عطاءك عمن شئت، بما يفيد تصرف بما تراه فيما منحناك من الملك والعطاء والتمكين. وهذا السماح، والإطلاق في التصرف ما يفيد كمال الإنعام في حرية الملك، سواء كان منعاً أو عطاء وتصرفاً. ليتحقق له بذلك كمال البهجة والمسرة بالنعمة. وكذلك من تمام النعمة أنه ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فلا حساب عليك مما تفعل من العطاء والإمساك، فأجاز له سبحانه وتعالى حرية وكمال التصرف، الذي يمثل كمال الإنعام فيما أعطاه عَزَّ وجل.

وبعد هذا الإنعام العظيم في الدنيا على نبي الله سليمان، يُكمل ويتم ربنا الرحمن الرحيم عليه النعمة في الآخرة، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ فله المكانة والكرامة، والمنزلة العالية في مقامنا وحظوتنا ﴿ لَزُلْفَىٰ ﴾ وهي القربة في الآخرة، أي: وله عندنا أيضاً المنزلة العالية، لأن الزلفى تعني القربة والمكانة والكرامة، والمنزلة العالية، وكذلك له ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ وأحسن وأفضل المصير والمرجع الذي يرجع إليه في الآخرة. وهو كريم المرجع وحُسنه، ودخول الجنة. مما يبين أن الله تعالى كريم في تعامله مع عباده الصالحين، فيغفر لهم، ويرفع منزلتهم، ويثيبهم بأحسن الثواب في الدنيا وكذلك في الآخرة. وأن على المؤمن بأن

لا يقنط من مغفرة وكرم الله تعالى، فإنه رحيم، يحب التوابين والمستغفرين والأوابين. اللهم نسألك الزلفى وحُسن المآب.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى نبيه داود ثم ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام بما مَنَّ عليهما من عظيم الملك والإنعام، ينتقل السياق إلى شأن عبده أيوب عليه السلام، فقال تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ واذكر أيها الرسول للناس خبر عبدنا أيوب عليه السلام حين أصابه الابتلاء بالضر، وكيف أناب إلينا، فعافيناه مما أصابه، ووسعنا عليه بكريم العطاء ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ الذي أصابه الضر في جسده وماله وأهله. فقابله بالصبر، إذ لم يشتكي لأحدٍ إلا لربه سبحانه وتعالى. ومن دقائق البيان في تكريم الله تعالى لعبده أيوب، أن أضافه إليه، واصفاً له بالعبودية ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ فاذكره بأحسن الذكر وأجمله وأطيبه، حين توجه إلى ربه مستغيثاً به على ما أصابه من الضر.

فجعل الله سبحانه وتعالى سيرة أيوب عليه الصلاة والسلام موعظة للناس في الابتلاء والصبر، والتوجه لربه تبارك وتعالى. ليتبين أن العطاء من الله تعالى وحده لا شريك له، فكما أعطى داود وسليمان عليهما السلام عظيم العطاء، فقد أعطى أيوب عليه السلام بعض البلاء العظيم، ليعلم الإنسان أن كل عطاء هو من الله تعالى، مهما كان نوعه، وهو رفعة لأيوب عليه السلام بما أصابه وبما كان منه من الصبر، حتى صار مثلاً للناس، فإن لربنا تبارك وتعالى ما يشاء من التدبير وكمال القدرة والحكمة، وهو أعلم بعباده. وليعلم أن الابتلاء لا يعني السخط، بل لله تعالى كمال الحكمة، وعظيم التدبير.

وورد الطلب من أيوب عليه الصلاة والسلام بالنداء ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ التي تفيد الطلب والاستغاثة، والنداء الذي يحمل الاستجداء والتضرع، والذي مفاده الاستغاثة والاستعطاف، مستجدياً ومستغيثاً ومستعطفاً لربه عَزَّ وجل بأن يقبل منه طلبه ويعطيه مسألته، فيرفع عنه ما أصابه من ضر قد مسه

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ ليدل النداء والاستجداء على قوة وشدة ما هو فيه من البأس والكرب العظيم. فكان النداء من باب التعظيم والتبجيل لربه سبحانه وتعالى، فقد دعا مستغيثاً بربه عَزَّ وجل ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فوصف ما أصابه بالمس، بما يفيد أن الضر قد باشر وخالط جسده. وربط أيوب عليه الصلاة والسلام بين توسله بالإخبار عن عموم حاله وبين تسلط الشيطان عليه، مدركاً أنه لن ينفعه ويرفع عنه ما أصابه إلا الله سبحانه وتعالى. وحصر تضرعه عليه الصلاة والسلام في وصف حاله بأمرين: فقد أصابني الشيطان ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ أي: بالتعب والمشقة والإعياء التي لا يستطيع تحملها. والأمر الثاني: ﴿وَعَذَابٍ﴾ وهو المرض الذي من شدته صار بمنزلة العذاب له من قوته. وأسند ذلك السبب إلى الشيطان، بما يزيده من الوسوسة التي أصابته بالنصب من المشقة العظيمة التي لا يستطيع تحملها، والعذاب بالقهر النفسي. فاجتمع له مرض الجسم وأذى الشيطان، مما يبين أن الشيطان إذا تسلط على الإنسان، ومنه المريض، ضاعف عليه مشاعر الألم، والوسوسة التي تذهب به يميناً وشمالاً.

ومن جميل البيان الذي يوضح صبر أيوب عليه الصلاة والسلام، وقوة استغاثته، هو عدم كشف تفاصيل ما به من الضر، بل عمم أمره بصفتين، هما: ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ دون تفصيل لنوع ذلك الضر، لعلمه بأن الله تعالى عالم به. فقد أُصِيب في جسمه وأهله وماله. ومن جميل أدب أيوب عليه السلام في الدعاء أنه لم ينسب ما أصابه إلى ربه تبارك وتعالى، بل نسبه في سورة الأنبياء إلى الضر نفسه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وفي هذه السورة نسبه إلى ما يكون من أذى الشيطان للإنسان ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وذلك تأدباً مع الله سبحانه وتعالى.

وملخص ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى عن قصة أيوب عليه الصلاة والسلام: أنه قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث الشيء الكثير، وكذلك له من الأولاد والمنازل، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، ولم يبق منه سليم من جسده إلا قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عَزَّ وجل. ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته[1] وكان عليه الصلاة والسلام صابراً على ما أصابه من الضر، الذي كان ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى واختباراً له. مما يفيد أن الله تعالى قد يبتلي العبد رفعة له، وليس انتقاماً وعقاباً، فليس كل ابتلاء هو عقوبة من الله تعالى، فإن لله تعالى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٧/٣)

الحكمة البالغة، فصبر أيوب على ما أصابه، مع التزامه بمداومة ذكره لربه جَلَّ في علاه، وحُسن عبادته. حتى ضُرِب به المثل في الصبر.

ثم أرشده ربه تبارك وتعالى إلى السبب الذي به يتم له الشفاء وكمال العافية، فقال تعالى ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ اضرب برجلك الأرض، ليحصل بذلك نبع الماء وخروجه من الأرض، فيكون ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ ﴾ لك. وكلمة ﴿ مُغْتَسَلٌ ﴾ تعني الماء الذي يغتسل به الإنسان. فاغتسل بهذا الماء الذي ينبع لك من الأرض. فاغتسل بما نبع وخرج من الأرض من الماء، والموصوف بأنه ﴿ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ بارد وصالح للشرب. وهذه كرامة من الله تعالى لعبده أيوب عليه الصلاة والسلام، بهذا النبع، وهذه البرودة، وليشرب منه ويغتسل، ليتم له كمال العافية مما أصابه من الضر. ومن دقائق المعالجة أن الله سبحانه وتعالى كَلَّفَه بالأخذ بالأسباب، وهو الضرب بالرجل على الأرض ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فمبدأ المعالجة بأن يضرب الأرض برجله، ثم الاغتسال، والشرب. ومثل ذلك أمر الله تعالى مريم بنت عمران عليها السلام بأن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب، كما ورد في سورة مريم ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ وهي والدة بابنها عيسى عليهما السلام. مما يبين أن من سنن الله تعالى الأخذ بالأسباب، والدعاء، ثم الباقي على الله تعالى في استجابة الدعاء، وتحقيق المراد، مهما كان نوعه. فإن الله تعال هو رب الأسباب، وهو خالق الأسباب، وهو الذي يُطَوِّعُ الأسباب كيف يشاء سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بمزيد كرمه وامتنانه على عبده أيوب عليه السلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فأضاف تبارك وتعالى المزيد من رحمته على أيوب عليه الصلاة والسلام، باستيفاء كمال نعمته عليه، فأعاد له أهله، وضاعف له في العطاء ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فضاعف الله تعالى في العطاء والإكرام على سبيل الهبة ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ فالهبة تكون اصطفاء من عند الله تعالى، ومنها النبوة، وغيرها من عطاء الله تعالى، فهو الوهاب الذي يهب لعباده الخيرات من الصحة والعافية والأرزاق، والعبادة، وغيرها من الهبات التي لا حصر ولا عَدَّ لها من كثرتها وتواليها. وقد ذكر ابن مسعود وابن عباس وقتادة: أن الله تعالى أحياهم بأعيانهم، ورد إليه مثلهم. وفَصَّل آخرون بأن: آتاه المثل من ماله الذي رده عليه، وأهله. فأما الأهل والمال فإنه ردهما عليه بأعيانها[1] وقال ابن مسعود: مات أولاده،

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣٦٦-٣٦٧)

وهم سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عُوفي نشروا له، وولدت امرأته سبعة بنين وسبع بنات[١] وقيل: بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله، فيكون معنى الآية على هذا[٢] وجميع ذلك على الله يسير. مما يبين كمال قدرة الله تعالى، وأنه يجازي عباده المتقين بأحسن الجزاء، وأن على المؤمن بأن لا ييأس من رحمة الله تعالى وكريم عطائه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى علة وسب هذا الإكرام منه عَزَّ وجل لأيوب عليه الصلاة والسلام ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فإنها رحمة خاصة من الله تعالى لصبره ورضاه. فتحقق له من الله تعالى جزيل الثواب برحمته جَلَّ في علاه. ثم ذكر عَزَّ وجل علة وسبباً آخر لهذا الامتنان بالشفاء، والتفضل عليه بأهله ومثلهم معهم، حتى يكون هداية لغيره ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: تذكرة وموعظة وعبرة لذوي العقول، حتى يعلموا عاقبة الصبر، وكيف الله تعالى يجزي الصابرين العابدين ربهم، ففعل ذلك بأيوب ليعتبر به أهل العقول السليمة. فيعرفوا أن الله سبحانه وتعالى قد يبتلي أولياءه بضروب من البلاء، في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، من غير عقاب على ذنب، وإنما لرفع درجاتهم، لأنه سماهم تبارك وتعالى في سورة الأنبياء بالعابدين ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ فإنهم عابدين لله تعالى، ومع ذلك قد يصيبهم من البلاء العظيم ما يظنه البعض عقوبة، وهو ليس كذلك. ولكن ليبلغ المنزلة التي أعدها الله تعالى لهم؛ إكراماً وتفضلاً بما يكون من العبد من الصبر والشكر على الابتلاء والاختبار. فحكمة الله تعالى أعظم من أن يتصورها العبد، وبأنها عظيمة في ذاتها من كل وجه.

وقد خص الله تعالى أولي الألباب بالانتفاع ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مما يفيد أن من انتفع بهذه المواعظ فهو من ذوي الألباب، ومن لم ينتفع بها فهو ليس منهم. فالمقياس هو مدى الانتفاع. مما يبين أن أهل العقول المنحدرة عن التعقل والانتفاع فإنها عقول ضائعة بأصحابها. كما أن في هذا مدح للمتعظين، وذم لمن ترك الموعظة ولم ينتفع بها. كما يفيد هذا أن الله تعالى جعل كتابه الكريم، وما فيه من الآيات والقصص هي للموعظة التي تربي الإنسان على معرفة الحق، والانقياد له، وتزيده علماً وفهماً، ومهارة في التعامل مع أقدار الله تعالى، وفق منهج وسنن ربنا جَلَّ في علاه.

ثم يوجه الله تعالى عبده أيوب عليه السلام إلى كيف يعالج ما حصل منه من القسم باليمن على زوجته. فقال تعالى ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٦/١١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٢٠/٣)

فلما أنه حصل من أيوب عليه السلام قسم ويمين على زوجته أثناء مرضه بأن يضربها مائة ضربة فإن الله تعالى عالج له ذلك بأن يأخذ مجموعة شماريخ الشجر حتى لا يحنث في يمينه وقسمه ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ اجمع بيدك حزمة أو مجموعة من شماريخ الشجر. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: خذ بيدك ضغثاً. هو ما يُجمع من شيء، مثل حزمة الرُّطْبَةِ، وكملء الكف من الشجر، أو الحشيش والشماريخ، ونحو ذلك مما قام على ساق[١]

﴿ فَٱضْرِب بِّهِۦ ﴾ أي: فاضرب به زوجتك إبراراً ليمينك بأن تضربها ﴿ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ ولا تأثم بذلك من اليمين التي عقدتها، وهي كما قال المفسرون: أنه غضب على زوجته في مرضه، في أمر يسير، فحلف لئن شافاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، فلما شافاه الله تعالى، هداه عَزَّ وجل إلى كيفية معالجة اليمين، بأن يأخذ مائة شمروخ، فيضربها بها ضربة واحدة. فقد كانت امرأة صالحة. وهذا من رحمة الله تعالى به وبزوجته. وفيه بيان لأهمية الوفاء باليمين. بما يسد عنها بأبسط الحلول الممكنة.

ثم يزكي سبحانه وتعالى عبده أيوب بأفضل التزكيات على صبره، وابتهاله لربه عَزَّ وجل، فقال تعالى ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فأول تلك التزكية ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ فشهد الله تعالى له بخصيصة الصبر، التي يحبها الله تعالى من العباد، بل ويكافئ عليها بأعظم الجزاء. ثم مدحه بقوله عَزَّ وجل ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ فهي تزكية عظيمة منه جَلَّ شأنه لِمَا شملته من عموم الثناء، ومن أسباب هذا العموم من المدح ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ إنه كثير التوبة والرجوع لربه في كل شأن. وهذا غاية في المدح والتزكية لأيوب عليه السلام بأنه كثير الرجوع إلى ربه. وقد أفادت جملة ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ أنها مدح من الله تعالى، وتزكية، فأعظم بها من منقبة له من الله تعالى. وقد علل الله سبحانه وتعالى كلمة المدح والثناء بجملة ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فإنه كثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، والطاعة والعبادة والامتثال لله عَزَّ وجل. مما يدل ويبين أن من أعظم المحامد كثرة الرجوع إلى الله تعالى في كل شأن، فإنها صفة العبودية الكاملة، لما في ذلك من العلم واليقين بأنه لا يمنع ولا يعطي ولا يدفع إلا الله سبحانه وتعالى، وهي مظهر من مظاهر التخلي عن الحول والقوة الذاتية إلا بمعونة الله سبحانه وتعالى وتوفيقه وتسديده للعبد.

ثم أجمل تبارك وتعالى بعض الأنبياء والمرسلين مدحاً وثناء عليهم، فقال تعالى مخاطباً رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ واذكر أيها النبي صلى

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١١/٢٠)

الله عليه وسلم للناس عبادنا إبراهيم، وابنه إسحاق، وابن إسحاق يعقوب عليهم الصلاة والسلام ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي ﴾ أي: القوة. وهي جمع يد، والتي تعني القوة والقدرة عموماً، والقوة في طاعة الله تعالى، والقوة في النعمة، وقوة في العبادة، وانتصاراً ونصرة في الدين. وكذلك أعطاهم الله تعالى العلم، وهو ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: العلم والبصيرة في الدين، وأمور الحياة، فشمل ذلك العلم النافع والعمل الصالح. ليعلم الإنسان أن كل عطاء هو من الله تعالى، ومنه القوة والعلم، فليسألها من الله تعالى.

ثم ذكر تبارك وتعالى المزيد من تفاصيل الإنعام عليهم ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ وإنا قد تكرمنا عليهم بخصيصة عظيمة وجليلة، وهي الاصطفاء ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم ﴾ خصصناهم بخاصة عظيمة، وهي ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ فجعلنا ذكر الآخرة التي هي ﴿ ٱلدَّارِ ﴾ في قلوبهم، بما يفيد أن قلوبهم مشتغلة بما يحقق مكاسب الدار الآخرة. بما يفيد ارتفاع مطامعهم عن الدنيا وشهواتها، فمرادهم وعملهم مُنْصَبٌ على الاشتغال بشأن الآخرة، التي هي دار القرار. فجعلوا أعمالهم في الدنيا لتحصيل ثواب الآخرة. ليعطوا بذلك القدوة والأسوة الصائبة الصحيحة. بأن يكون شغل المؤمن الأول هو للحياة الباقية الدائمة التي لا تنتهي.

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى اجتهادهم للآخرة، وتعلق قلوبهم بها، يُظهر الله تعالى لعباده مكافأتهم، وتحقيق مرادهم بأحسن الجزاء والثواب، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ فإنهم من الذين اخترناهم واصطفيناهم لرسالتنا ولطاعتنا. فهم من المختارين والمجتبين من بين جنسهم، ليكونوا الأخيار من عبادنا. وتفيد دلالة جملة ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا ﴾ الحظوة والمنزلة، إذ أضافهم تبارك وتعالى إليه. وكذلك نعمة الاصطفاء ﴿ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ﴾ فإنهم قد اصطفاهم الله تعالى، وخصهم من بين غيرهم من البشر. وأفادت دلالة ﴿ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ جمع خير، فإنهم من خيرة الناس، بما يفيد أنهم يمثلون القدوة والأسوة. وأفاد حرف ﴿ لَمِنَ ﴾ بأن هناك غيرهم معهم، بما يفيد الترغيب للعباد بأن يكونوا معهم.

ثم ذكر تبارك وتعالى إسماعيل، واليسع وذا الكفل ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ واذكر أيها الرسول هؤلاء الأنبياء: إسماعيل واليسع، وذا الكفل عليهم الصلاة والسلام بأحسن الذكر وأجمله ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ فكل واحد منهم من الأخيار الذين اختارهم واصطفاهم ربهم من الناس، واجتباهم بأحسن ما يُذكَرُون به من الذكر والمدح والثناء، إذ أنهم من أخيار جنس الإنسان.

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

ثم يشير تبارك وتعالى إلى من تم ذكرهم من الأنبياء والمرسلين بما لهم في الآخرة من حُسن المآل. فقال تعالى ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ فهذا ذكر لمن أراد أن يتذكر بأحوال من ذكرنا من الأنبياء والمرسلين، وقد بينا ما لهم من المناقب والمنزلة في الدنيا والآخرة، وكذلك لكل من يتقي ربه له أحسن الجزاء وأكمله ﴿ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ فإن لكل من يتقي الله ربه سبحانه وتعال فإن له ﴿ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ فلهم حُسن المرجع الذي يرجعون إليه يوم الدين، من الجزاء والثواب العظيم. مما يفيد الوعد الجازم بأن عطاءنا ليس مقصوراً على من اصطفينا واجتبينا من النبيين والمرسلين، بل لكل المتقين ربهم فإن لهم كمال الثواب بالنعيم المقيم عند ربهم، حين رجوعهم للآخرة التي هي دار المتقين.

ثم يصف تبارك وتعالى حُسن المآب، فيقول عَزَّ وجل ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ أي: جنات دائمة الإقامة، لا تزول، ولا تحول. ومن الفوائد أن من دلائل ﴿ عَدۡنٖ ﴾ الإقامة الدائمة، فمعنى: عَدَنَ بالمكان: أقام به، وعَدَنَ بالبلاد توطنها. وعَدَن الأرض: سَمَّدَها. وعَدَن الحجر: قَلَعَهُ. فهي جنات دائمة لا نهاية لها ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ مُشرعة لهم الأبواب من أجل دخولهم، وذلك ترحيباً بهم. بما يفيد أنهم لا يحتاجون أن يفتحوها، لإعطاء دلالة كمال الترحيب والعناية بهم، إكراماً لما كان منهم من طاعة ربهم سبحانه وتعالى. كما يدل على أنهم مخدومون حتى في فتح أبوابها. مما يفيد كمال الأمان، فكونها مشرعة لهم الأبواب دليل على كمال الأمن والأمان، فلا يحتاجون إلى إغلاقها من خوف أو نحوه. فليس فيها ما يوجب الحذر بإغلاق الأبواب.

ثم يذكر تبارك وتعالى هيئة جلوس أهل جنات عدن، ومشاربهم، وما يتنعمون به من نعيم المشرب والمأكل، فقال تبارك وتعالى ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ فهيئة جلوسهم أنهم في جنات عدن ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ متكئين في جنات عدن على الأرائك، من السرر. وكلمة ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ تعني الاتكاء، والاضطجاع، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والاستمتاع الذي لا تعب ولا نصب فيه، فإنهم في كمال السرور والمتعة.

ثم يصف الله تبارك وتعالى ما هم فيه من نعيم المأكل والمشرب ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ يطلبون ممن يخدمهم ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ بالفواكه الكثيرة المتنوعة، من كل ما تشتهيه نفوسهم، فمهما طلبوا وجدوا ما يطلبون. وأيضاً لهم فيها ﴿وَشَرَابٖ﴾ أي: ومن جميع أنواع الشراب يأتي به من يخدمهم. مما يدل على أنهم لا يخدمون أنفسهم بأي شيء، بل مخدومون من غيرهم من الخدم. ومن نعيم الجنة كذلك ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ أي: العفيفات اللاتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن، فليس لهن طمع في غير أزواجهن. وأصل القصر ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أنه الحبس والمنع، فلا ترى أحسن وأجمل من زوجها، فينقصر طرفها عليه. وكذلك قصرن طرف الأزواج عن غيرهن، فلا يرى الزوج أحسن وأجمل من زوجاته. مما يدل على كمال متعة الزوجين.

ومن جمالهن أنهن حِسَان العيون. فجمعت دلالة الوصف ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ معنى الحسن، ومعنى القصر والعفاف. مما يعطي ويبين غزارة دلالة كلام الله تعالى، الذي تعاظم في نسقه، ووصفه، ودلالاته، وفي صوت كلماته، وإرشاده في كل وجه من الخير والعطاء. مما يفيد أن قلوب أهل الجنة فيما يتعلق بالأزواج مقصورة على ما عندهم، مما يجعل القلب في سعادة تامة، فلا يتشوف لغير ما أعطاه وخصه الله تعالى به، سواء في حق الزوج أو في حق الزوجة.

وكذلك من أوصافهن أنهن ﴿أَتۡرَابٌ﴾ أي: متوافقات ومتحدات في العمر والسن، ومتساويات في الجمال والحسن. وقال بعضهم: متاخيات، لا يتباغضن، ولا يتعادين، ولا يتغايرن، ولا يتحاسدن[١] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: المتحدات في السن، أو المتساويات في الحسن[٢] فهي تجمع التساوي في السن وفي درجة الجمال والحسن، وخلوا قلوبهن من التشاحن والتباغض والحسد.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذا النعيم الذي تُوعدون به جزاء أعمالكم يوم الحساب أيها المتقون ربكم، فيقول عَزَّ وجل ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا هو الجزاء الذي وعدناكم به في الآخرة ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ لأجل يوم الحساب، فالحساب هو السبب والوسيلة للجزاء وبلوغ ما وعدنا به المتقين من الثواب العظيم.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٤/٢٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٣٨/٤)

ويخبر الله تعالى عن أن هذا النعيم دائم لا نهاية له ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ إن هذا الرزق من الجنة ونعيمها الذي ذكرناه لكم ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ ليس له انقطاع، ولا نهاية، فهو نعيم دائم خالد، لكم فيها حياة أبدية. بما يفيد: أنه لا موت لكم، ولا نهاية لكم ولا لهذا النعيم، فإنها دار إقامة، فلا فناء في الجنة ولا نهاية لها.

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى ما أعده للمتقين من النعيم المقيم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما أعده سبحانه وتعالى للطاغين من شر ما ينزلون فيه من العذاب. فقال عَزَّ وجل ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ فإن للطاغين الذين جاوزا الحد في العناد والكبر حتى كفروا، فإن لهؤلاء أعظم الشر من العذاب وأنكله، فليس هناك شر منه عليهم. فلم يسبق لهم شر مثله أبداً. لبيان شدته، وليفيد التحذير من الكفر. وقد انتقل البيان من حال المتقين إلى حال الطاغين باسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ ليفيد الانتقال والانتهاء من بيان شأن المتقين، فذلك ما كان للمتقين وهذا ما سيكون من شأن الطاغين ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ فإن للطاغين الذين جاوزا الحد في العناد والكبر حتى كفروا، فإن لهؤلاء الطغاة أعظم الشر وأنكله. فليس هناك شر منه عليهم. فلم يسبق لهم شر مثله. لبيان شدته، وليفيد التحذير من الكفر. ليدل على أن ما حصلوا عليه في الدنيا من الشر والعذاب لا يساوي شيئاً بما سيكون لهم في الآخرة من العذاب المقيم الذي لا ينفك عنهم أبداً.

فإن هذه ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فهذه نار جهنم التي يصلونها، هي أشد وأشر مرجع ومآل يعودون إليه، فَيُحَصِّلُون عذابها، إذ يدخلونها فتُصليهم من جميع جوانبهم. ثم يذكر الله تعالى جهنم بأشنع الأوصاف ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فبئس النكاية والشدة والمكروه لهم. فبئس ما أُعد لهم مسكناً وإقامة، وبئس ما افترشوا من عذاب جهنم، وبئس ما قدموا لأنفسهم، ومهدوا لها بأن يكون هذا هو حالهم. فبئس النكاية والشدة والمكروه الذي هو مآلهم، وكائن لهم.

وقد ورد عذاب جهنم بالاصطلاء، بأنهم ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ فيقاسون شدة حرها. التي تكشف شدة وقوة معاناتهم فيها ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ فإنهم يُقَاسُون شدة لظاها وسعيرها بدخولهم فيها، كما يفيد معنى الصلي: الشواء بالنار، فيشتوون فيها مثل ما تُشوى اللحمة على النار، مع الفارق بين نار الدنيا ونار جهنم. فهو تصوير دقيق لدار قرار الكافرين.

ثم يصف تبارك وتعالى حال الطاغين، ويبين عظيم وشدة عذابهم الأليم، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴾ هذا العذاب الذي يتذوقون حرارته بشربهم له. واسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ عائد على العذاب، ليفيد تعظيمه بالإشارة إليه ﴿ فَلۡيَذُوقُوهُ ﴾ بأن يشربوه، ويتذوقوا حرارته بشربهم له، وأن من صفاته أنه ﴿ حَمِيمٞ ﴾ وهو الماء الحار، وكذلك من صفاته أنه ﴿ وَغَسَّاقٞ ﴾ وهو ما يسيل من صديد أهل النار.

ذكر ابن زيد رحمه الله تعالى وغيره: أن الغساق: الصديد يخرج من جلود أهل النار، فيشربونه[١] ثم يخبر سبحانه وتعالى بالمزيد مما لهم من العذاب، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴾ وعذاب آخر ﴿ مِن شَكۡلِهِۦٓ ﴾ من هيئته وصنفه وعلى شاكلته ﴿ أَزۡوَٰجٌ ﴾ أصناف. مما يدل على كثرة أنواع العذاب وتنوع أصنافه، بحيث ينتقلون من نوع من العذاب إلى لون ونوع آخر من العذاب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى ما يقوله أهل النار لبعضهم البعض ﴿ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴾ فيقول الطغاة لبعضهم البعض: حين تَقْدُمُ جماعة أخرى إلى النار ﴿ هَٰذَا فَوۡجٞ ﴾ هذه جماعة من أهل النار ﴿ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ ﴾ داخلة معكم ﴿ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ ﴾ لا ترحيب لهم، لأنه مكان لا يُرَحَّب فيه، بسبب ﴿ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴾ فسيقتحمون ويصلون النار، فكيف يُرَحَّب بهم وهم في هذا المصير. مما يفيد الحسرة والندامة والتهكم، بعكس أهل الجنة الذين يُرَحَّبُ بهم، وتسلم عليهم الملائكة. فهو بيان للحقيقة التي يكون عليها الطغاة، بكفرهم وتكبرهم على الحق، فيجدون الإهانة والعذاب المتنوع في شكله ونوعه وحجمه. مما يفيد التحذير من الله تعالى للكفرة من هذا المصير. فهو إنذار وبيان وتحذير. وترغيب لأهل الطاعة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/١٢٨-١٢٩)

فيما اختاروا من الامتثال لربهم عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان أن اسم الإشارة هنا ﴿ هَٰذَا ﴾ يفيد التهويل لكثرة الداخلين إلى النار ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ ﴾ فهذه جماعة أخرى داخلة معكم النار.

وهنا يجيب ويرد الداخلون النار على من سبقهم فيها ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ فيقول الاتباع الداخلون إلى النار لمن سبقهم، بعد أن سمعوا مقالتهم: بأنه لا مرحباً بهم، فردوا عليهم بالمثل ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أنتم الذين لا مرحباً بكم. ليفيد اللوم والحسرة. ثم ذكروا السبب ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أنتم الذين تسببتم في حصولنا على هذا العذاب، بما زينتموه لنا من المعصية والكفر، ثم يذمون مكان إقامتهم، قائلين ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ فبئس هذا القرار الذي قدمتموه لنا من العذاب الشديد، والقرار الذي لا خروج منه أبداً. فهنا تشتعل الحسرة والندامة في قلوبهم ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرة ولا الندامة، ولا يمكن تداركها أبداً بأي حال من الأحوال.

ثم يزداد التخاصم بينهم، فيتضرعون لربهم بأن يضاعف العذاب على من كان سبباً في غوايتهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ فيطلب الاتباع من الله سبحانه وتعالى أن يضاعف لأولئك الذين أغووهم عن الحق العذب، وسموهم بما كان منهم من الإغواء ﴿ مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا ﴾ من تسبب لنا في تحصيل هذا العذاب ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ فضاعف لهم العذاب بما يستحقون من النار، وأيضاً بما كان من إغوائهم لنا بهذا العذاب، وهذا المآل.

ثم انتقل أهل النار في تساؤل عن صنف من الناس، كانوا يرونهم في الدنيا حسب تقييمهم لهم أنهم أشرار ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ فقال أهل النار فيما بينهم ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ لماذا لا نرى رجالاً كنا نلومهم، ونتنقص منهم، ونزدريهم في الدنيا، يعنون بهم المؤمنين ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ كنا نحسبهم في حسباننا أنهم هم أهل الشر، لأنهم خالفونا في الكفر، واتجهوا لطاعة ربهم، ولم يغتروا بشهوات الدنيا ومفاتنها. ثم يؤكدون صنيعهم بقولهم ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ كنا نسخر ونستهزئ بهم ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ والاتخاذ يدل على المبالغة في السخرية بهم في الدنيا. فإنهم غائبون عن هذا المكان، فلا نراهم؟ فهل هم غائبون عن هذا المكان، فلم يحضروا؟

﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أم أنهم موجودون هنا معنا ولكن أبصارنا تاهت عن رؤيتنا لهم، فلم نعلم مكانهم. مما يفيد التوبيخ والتعجب من حالهم ومما كان منهم مع المؤمنين في الدنيا. فهو توبيخ لحالهم اليوم، وحسرة وندامة وتوبيخ لما كان منهم مع المؤمنين. فاستوفى البيان كلا الحالتين: حالتهم وما كان منهم مع المؤمنين. وفقدانهم للمؤمنين.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأن هذه هي حقيقة أهل النار في تخاصمهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ فذلك الذي ذكرناه لكم هو الحق في تخاصم أهل النار ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ﴾ فهو الحق الذي لا ريب فيه أن ذلك هو ﴿تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ بما يكون منهم من المجادلة والملاعنة، والحسرة، والندامة التي لا يمكن استدراكها وعلاجها. بما يفيد الوعظ والإنذار من تلك الحقائق، فعلى من كفر أن يتدارك نفسه قبل أن يكون ذلك هو واقعه مع أهل النار. وفي نفس الوقت هو توجيه وترغيب للمؤمنين بالمتابعة على ما هم عليه من الطاعة والامتثال لله رب العالمين، وعدم الحيدة عنه.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ
٦٦ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩ إِن
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٧٠ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ
مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾

بعد أن ساق تبارك وتعالى البيان عن حال المتقين أهل الجنة، وحال الكافرين أهل النار، ينتقل الخطاب إلى إرشاد وتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينذر الناس من عذاب الله تعالى، كما يبين أن مسؤوليته صلى الله عليه وسلم مقصورة على الإنذار بما أمر الله تعالى به. فقال تبارك وتعالى ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ قل يا أيها النبي لجميع الناس: إنما أنا منذر لكم من الشرك، وما يتبعه من عذاب الله تعالى، فإن حقيقة العبودية هي توحيد الله تعالى بالعبادة والملك والتصرف، والربوبية والألوهية ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ فليس هناك من إله إلا الله المتصف بالوحدانية، وأنه القاهر بقدرته،

والغالب بعزته، فربكم هو ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ فربكم إله واحد، وهو القهار الذي قهر ويقهر كل شيء بسلطانه العظيم.

وقد ورد البيان بأداة الحصر ﴿إِنَّمَآ﴾ بما يفيد حصر المهمة والمسؤولية النبوية بأنها في الإبلاغ، والتحذير، بأن ينذر الناس من الشرك وعموم الكفر ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ بما يفيد لست مكلفاً بإرغامكم على دين الله تعالى، ولست مكلفاً بهدايتكم، وإنما مسؤوليتي هي عن هداية الدلالة فقط، بأن أدلكم على الخير، وأنذركم وأحذركم من الشرك ومن جميع أنواع المعصية لله تعالى، وما يتبع ذلك من العذاب المهين. ومن دقائق البيان أن ورد الإنذار عاماً ليشمل الشرك وغيره ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ ثم أظهر تبارك وتعالى الوحدانية له وحده لا شريك له ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ لإبراز مقامها، وأنها أول مرتكزات الإنذار. وبما يفيد أن كل طاعة لا تُقبل إلا بعد إزالة الأول، وهو الشرك، بما يفيد أن كل طاعة صحيحة يكون أساسها أنها قائمة ومبنية على توحيد الله عَزَّ وجل.

ثم بعد التحذير يوضح ويبين تبارك وتعالى للمشركين وللناس جميعاً أنه ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ نفي جميع الألوهية والآلهة بقوله عَزَّ وجل ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ فهو نفي شامل وقطعي لكل معبود من دونه عَزَّ وجل، ثم حصر الألوهية في وحدانيته عَزَّ وجل ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فربكم وإلهكم إله واحد، هو ﴿ٱللَّهُ﴾ المتصف بالوحدانية ﴿ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ ليس له شريك، فينفي بذلك كل الدعاوي الشركية، وأنها باطلة، ولا حقيقة لها.

ثم أظهر صفة عظمته جَلَّ جلاله، والتي يؤكد بها انفراده بالوحدانية والعظمة، فقال تعالى ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ليس هناك أحد منفرد بالقهر غيره جَلَّ جلاله. ووردت ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ بصيغة المبالغة، أي: الذي يقهر كل شيء من خلقه، بعظمته وسلطانه وقوته. والقهار اسم من أسماء الله تعالى، يحمل صفة القوة والجبروت والسلطان. وهي من صيغ المبالغة، التي تعني: أنها بلغت ذروتها وكمالها. وفي هذا تحذير من الشرك، وإبطال له أمام الله الواحد القهار. فيلزم كل مشرك أن يقلع عن الشرك، حتى لا يقهره الله تعالى بالعذاب المهين. فهو تعليم، وتحذير وتهديد، وتشريع من الله سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان إلى إظهار المزيد من مظاهر قوته عَزَّ وجل، وعظمة ملكه جَلَّ جلاله، فربكم وإلهكم هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ إن ربكم أيها الناس الواحد القهار هو رب السماوات

والأرض وجميع ما بينهما من المخلوقات، فهو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: رب العالم العلوي، الذي يشمل جميع ما ترون وما غاب عنكم، وكذلك هو رب ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: رب جميع العالم السفلي، ليشمل الأرض وما عليها، وما في باطنها، وكذلك ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي: بما ين السماء والأرض، ليشمل جميع ما يشاهدونه ويعرفونه، كالنجوم والأفلاك والشمس والقمر والسحب، وما يحسونه ولا يرونه كالهواء، وما لا يدركونه من المسافة والمخلوقات التي لا يعرفونها. وفي هذا إظهار شأن رب العالمين وعظمته وقهره وعظيم سلطانه، من خلال تعظيم ملكه الذي يقابله تهوين شأن البعث والحساب والجزاء أمام عظمة ما خلق من هذا الكون العظيم. وأضاف عَزَّ وجل صفتين عظيمتين، هما: صفة العزة: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وصفة: ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ فإن لربكم كمال العزة، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. مما يفيد التحذير من المعصية، والتحذير من عدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته، ومع كمال العزة فإن ربكم هو ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ أي: الكثير المغفرة لعباده، بمحوها وسترها، فمع كمال عزته فإنه غفور. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ووصف ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ تمهيداً لصفة ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ أي: غفار عن عزة ومقدرة، لا عن عجز[1] ولإفادة أنه مع عزته سبحانه وتعالى فلا تيأسوا من مغفرته، وفي ذلك ترغيب لكل عاص مهما بلغت معصيته أن يتوب إلى ربه العزيز الغفار. فجمعت دلالتها بين الترهيب والترغيب. وكذلك بأسلوب المبالغة التي تستوفي كمال العزة وكمال المغفرة.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين وغيرهم عما أنذرهم به، فقال تعالى ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم للناس جميعاً: إنما الذي أنذرتكم به من البعث والحساب والجزاء، وما عُوقِبَت به الأمم السابقة التي كذبت المرسلين، وما أخبرتكم من وجوب طاعة رب العالمين ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ هو خبر وشأن جليل عظيم، فعليكم أن تُعَظِّمُوا ما جئتكم به من الله سبحانه وتعالى، وأن لا تستخفوا به. ووردت دلالة النبأ عامة شاملة لكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأول ذلك النبأ هو القرآن العظيم، وما فيه من المواعظ والقصص والأحكام والأخلاق وغير ذلك مما تضمنه القرآن الكريم، وكذلك السنة النبوية. وجميع شريعة الله تعالى. وفي هذا تهويل وتحذير وتهديد من مسلك الاستكبار، وأخذ الأمر باستخفاف وعناد. كما فيه توثيق صدق رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإعلانها لجميع الناس.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٣٨/٩)

ثم يبين لهم تبارك وتعالى حالهم حيال هذا النبأ العظيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ فحالكم وواقعكم أنكم عن هذا النبأ العظيم معرضون عنه، فشمل الإعراض، صدودهم، وعدم تدبرهم وتفكرهم فيما جاءهم من النبأ العظيم. فأخذهم العناد والاستكبار والاستخفاف عن التأمل والتدبر، فحصل الإعراض منهم. مما يبين أن واجبكم، وواجب الناس أجمعين أن يتدبروا ويتفكروا، إذ لو فعلوا ذلك من التدبر والتفكر لَمَا أعرضوا. وذلك لقوة مضمون النبأ ودلائله وحججه التي أعرض عنها من أعرض من المشركين الذين لم يتدبروا ويتفكروا بسبب الكبر والعناد والحسد. فهي موعظة لجميع أجيال الناس المتعاقبة إلى قيام الساعة.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم بمحدودية علمه صلى الله عليه وسلم، إلا بما علمه الله تعالى، فقال عَزَّ وجل آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ لم يكن لدي علم بشأن ما تخاصم فيه الملأ الأعلى في شأن خلق آدم عليه السلام، فلولا أن الله تعالى عَلَّمَني ذلك، والذي أعلمتكم به، بناء على ما ورد في القرآن الكريم لَمَا عَرفتُ ذلك. ليتأكد لهم بأن هذا دليل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام بما أخبرهم من الغيب.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن دلالة الآية الكريمة: أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له. ومحاجته ربه في تفضيله عليه[1] فكيف أخبركم عن ذلك إلا بوحي من الله تعالى؟ مما يستوجب عليكم الإيمان والتصديق برسالتي إليكم من الله عَزَّ وجل.

﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فما يُوحى إليَّ إلا أنما أنا نذير مبين، أُبين وأُظهر لكم الحق بشريعة الله تعالى التي شرعها عَزَّ وجل لعباده، وكذلك رسالتي ظاهرة، فما أخبرتكم به من علم الغيب هو دليل أنه بوحي من الله تبارك وتعالى. وقد وصف الله تعالى ما ينذرهم به بأنه واضح جلي ﴿ مُّبِينٌ ﴾ لا غموض فيه، فهو ظاهر في حججه ودلائله وبراهينه، وبما يفيد أن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ظاهرة ساطعة واضحة. فلا يكفر إلا المعاند، لاستكباره وحسده.

ومن دقائق البيان أن السياق أعطى إفادة القصر بأداة الحصر ﴿ إِلَّا ﴾ لمهمة النبي صلى الله عليه وسلم في الإنذار الواضح ببيانه للحق ﴿ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بما يفيد اشتمال الإنذار على الحجج والبراهين المبينة أنني نذير مبين. وأثبتت مصدر البيان بأنه وحي ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ وبالتالي فإن هذا تزكية للقرآن الكريم والسنة النبوية بأنها بوحي من الله تعالى، وأن القرآن كلام الله تعالى، الْمُنَزَّل على رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧)

﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بما يفيد أن مهمتي هي إبلاغكم بالنبأ العظيم، وهو ما يُوحَى إليَّ من الله عَزَّ وجل لأنذركم فقط، وبما يفيد: أن هدايتكم ليست من مسؤوليتي ومهمتي، فأنتم تتحملون مسؤولية أنفسكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن كفر فعليه أن يتحمل وزر كفره وشركه ومعصيته.

بعد أن ذكر تبارك وتعالى خصومة الملأ الأعلى إجمالاً فيما سبق، شرع البيان الكريم بعد ذلك في الإيضاح والتفصيل ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ واذكر أيها النبي حين ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ أي: بإخبار ربك للملائكة ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ فإني سأخلق فيما هو قادم جنس جديد، هم ﴿ بَشَرًا ﴾ أي: جنس البشر. وهذا الإخبار للملائكة هو من باب التكريم لهم، وليس من باب أخذ رأيهم. وأيضاً لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى بهذا الإخبار لهم بذلك. ثم بين تبارك وتعالى مادة الخلق لهذا الجنس بأنها ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ فهذا المخلوق سيكون أصله من الطين. وهو خلق ربنا تبارك وتعالى لآدم عليه السلام، أب البشرية جميعها، فأعاد المخاطبين إلى التفكير والتأمل في أصل الخلقة. فأصل البشر من طين متلاصق، والطين هو التراب المختلط بالماء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الطين الحر الجيد اللزق. وقيل: هو الطين الذي ينشف عنه الماء، وتبقى رطوبته في باطنه، فيلصق باليد كالشمع[١] وفي هذا البيان من الفوائد أن الله سبحانه وتعالى يُقرر عباده بأنهم أضعف مما ذكره سبحانه وتعالى مما خلق من السماوات وعوالمها والكواكب العظيمة في تكوينها وهيئتها وقوتها، وارتفاعها، والأرض وما حوت. بما يدل على أن إعادتهم بعد الفناء أهون من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

فقد كان أصل خلقكم أيها الإنسان من طين، ليدل على الضعف، فجعل من هذا الضعف قوة، وبما يفيد فكيف يستبعد هؤلاء البعث من جديد بعد الفناء، وهم مخلوقون من هذا المكون الضعيف، وجعلناهم جنساً قائماً بذاته، وهو جنس الإنسان. فمن كانت قدرته بهذه العظمة، فإنه لا يعجزه إعادتهم بعد فنائهم. فأين محور العجز في ذلك؟ بما يستثير عند الإنسان الانتباه والتفكر، والقياس، والتدقيق، من خلال إعادته لأصل خلقته. فإن جميع المشاهد من مخلوقات الله تعالى، ومن خلق الإنسان تبين وتعلن أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء أبداً، وأن على المخلوق عدم قياس قدرة الخالق على المخاليق، لأنه هو الذي أنشأ أصل الكون من العدم.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بما كلف به الملائكة من القيام بالتكريم لآدم عليه السلام عند خلقه، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ فإذا أكملت هيئته وصورته، وأصبح

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٨٨)

مستوياً على الكيفية التي أرادها الله عَزَّ وجل ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ونفخت فيه روح الحياة التي يحيا بها الإنسان، ويموت بخروجها منه، والتي لا يعلم ما هيتها أحد ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ فاسجدوا لآدم سجود تكريم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: خروا له ساجدين، وهو سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، ولله أن يفضل من يريد[1] وفي دلالة كلمة ﴿ فَقَعُواْ ﴾ ما يفيد الوجوب اللازم الذي لا مناص ولا عذر منه، كما يدل على سرعة التنفيذ المباشر، ويدل لفظ الوقوع ﴿ فَقَعُواْ ﴾ على معنى السقوط بالسجود ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ وفي هذا دليل على أن هيئة الملائكة قادرة على الانحناء والارتخاء وأداء السجود.

ومن دلائل الآية الكريمة، أن الله تعالى هو الذي اعتنى بهذا الإنسان، ونسب خلقه إليه عَزَّ وجل، وأحسن صورته بأكمل دلالة وأحسن هيئة، وأجمل صورة وأكملها، وأضفى عليه مزيد التكريم له، بأن نسب التسوية إليه عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ والتسوية تستوفي كمال الهيئة والصورة والقدرة، سواء كان في قوتها وقدرتها، أو في حسنها ولطافتها، ونسب سبحانه وتعالى الروح إليه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ والتي هي خلق من خلقه تبارك وتعالى، وفي نسبتها له عَزَّ وجل ما يفيد التشريف والتكريم لهذا المخلوق، الذي نفخ الله تعالى فيه الروح بنفسه، مما يوجب على العبد محبة ربه تبارك وتعالى، وتوحيده، وعبادته كما أمر، فهو الذي أكرمه بهذه التسوية، وهذه العناية الخاصة، بل وأمر الملائكة بالسجود له.، فهذا يستوجب منهم محبة ربهم تبارك وتعالى الذي خلقهم في أحسن تقويم، وأكرمهم بهذا الكرم من بين خلقه، فيجب عليهم أن يُجلّوا ربهم تبارك وتعالى، وأن يعبدوه ويطيعوه، ولا يعصونه، وعلى العباد بأن لا يتفاخروا فيما بينهم، فكلهم مخلوقين من مادة واحدة، ومن نفس واحدة.

ثم يخبر الله تعالى عن مدى استجابة الملائكة لما أُمِرُوا به من السجود ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فقد استجابت وامتثلت جميع الملائكة لأمر الله تعالى، فسجدوا جميعاً بلا استثناء، ومن غير تراخ، بل إن كلمة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ أفادت قطع الاحتمال من أن بعضهم أو أفراداً منهم لم يستجب، فكلهم امتثل واستجاب لأمر الله تعالى، ثم أكد تبارك وتعالى ذلك بكلمة ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ لتؤكد الْمُؤَكَّد، ولتفيد المبالغة في وصف امتثال الملائكة وطاعتها لربها جميعاً، بلا استثناء، مع سرعة المبادرة في الامتثال. مما يدل على أن إبليس ليس من الملائكة، بل هو خلق آخر. فهو مخلوق من نار، والملائكة من نور. فإلا إبليس الذي أبى

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٨)

واستكبر ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فإبليس امتنع من غير تردد، على نقيض الملائكة التي سجدت من غير تردد، فهو المستثنى ممن أُمروا بالسجود ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ وسبب امتناعه هو ﴿ ٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ مما يبين خطورة الكبر على قبول الحق، والإذعان له، فكل أمر لله تعالى هو حق، ويجب طاعته فيه، مهما كان جهل المأمور به. وبهذا الكبر والاستعلاء من أن يسجد لآدم عليه السلام أصبح من الكافرين ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فأصبح إبليس من جماعة الكافرين، لمخالفته أمر الله سبحانه وتعالى. مما يدل على خطورة إبليس، بعصيانه، وتمرده، بالرغم من علمه بمثل ما علمت به الملائكة من أن الله تعالى سيخلق بشراً من طين، فتبين لإبليس قدرة الله تعالى بما هو صانع قبل أن يصنع، وما هو خالق قبل أن يخلق. مما يدل على عداوته وحقده وحسده لآدم وذريته منذ أن خلق الله تعالى آدم. مما يُوجِب على الإنسان أن يتخذه عدواً مبيناً.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليهم السلام حين خلقه، وامتنع إبليس عن السجود، فإن الله تعالى وجَّه له السؤال عن سبب امتناعه، فقال تعالى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ فيخبر الله تعالى عن حلمه وحكمته، إذ لم يبادر سبحانه وتعالى بعقوبته، وهو العالم بعلة امتناعه من غير أن يسأله، ولكن ليبين عدله، وتقرير العاصي بمعصيته ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ فأي غرض، وأي علة منعتك عن السجود مع الساجدين لما خلقت بيدي؟ وقد بدأ النداء الكريم لإبليس بأسلوب الاستفهام الدال على الزجر والتوبيخ والتقريع والإنكار. فهو سؤال عن العلة التي منعته عما يجب أن يكون عليه من السجود لآدم عليه السلام.

وقد بين وأوضح تبارك وتعالى لإبليس ميزة هذا المخلوق من التكريم، بأن أضاف خلق آدم إلى يديه العظيمة جَلَّ جلاله ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ مما يبين أن مِن موجبات السجود هو التكريم لهذا المخلوق، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، بما يفيد أن له منزلة مخصوصة عند ربه جَلَّ في علاه. ثم أخبره بأي العلتين والسببين امتنعت، بما يفيد معرفة الله تعالى للسبب، ولكن ليقرره بما كان منه ﴿ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ هل استكبرت في نفسك عليه، وعلى ما أمرتك به، وبالتالي تعاليت بغير حق. أو أنك مخصوص مني بمنزلة جعلتك من العالين ﴿ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ أم أنك يا إبليس قد حصلت مني على منزلة رفعتك عالياً عن أن تسجد لما أمرتك أن تسجد له؟ فكنت بذلك من الفئة العالية المشرفة بالعلو والشرف التي يمتنع منها السجود لما خلقت بيدي. وهنا حصر إبليس في أمرين: الأول ﴿ أَسۡتَكۡبَرۡتَ ﴾ وهو افتعال منك الاستعلاء والاستكبار، فكان الشأن من داخل نفسك، وهو من غير حق ولا استحقاق يجعلك تمتنع به. ﴿ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ أو كنت من الفئة المشرفة التي حصلت على منزلة تتعالى بها عن أن تسجد لما خلقت بيدي. وهذا القصر والحصر للعلة ما يجعل إبليس يدرك أن السبب هو الاستكبار لأن المنزلة، التي تمثل الصفة الثانية ﴿ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ منتفية ومنفية قطعاً، فلا يستطيع أن يقول بها، لأن الله تعالى ما منحه شيئاً من ذلك. لتنحصر الإجابة والعلة والسبب في افتعال النفس للاستكبار والتعالي، من غير وجه حق. مما يستوجب بها العقوبة العظيمة كما سيرد بيانها في الآيات القادمة بإذن الله تعالى.

وهنا أجاب إبليس بإجابة حاد بها إلى أصل الخلقة ونوعها، والتي يُثبت بها أن عدم سجوده كان بسبب الاستكبار الذي حصل في نفسه ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ فعدل إبليس إلى أصل الخلقة، وميزها بتمييز من عنده، من غير أن تكون عنده حجة، فقرر لنفسه الخيرية ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ فقرر أنه أفضل من آدم، بما يفيد: كيف أسجد لمن هو دوني، والسبب هو أصل الخلقة ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ ﴾ أنا مخلوق من نار، بما يفيد الاستعلاء بها ﴿ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ وآدم خلقته من طين. بما يفيد في تقييمه أن النار أعظم وأعلى درجة من الطين. فعاد بنفسه إلى تقييمه الشخصي من غير علم بحقائق الأصول، فقد فسر المادتين بغير علم، وبنى عليها فهمه الذي أوداه في الكفر.

فَحَكَمَ إبليس من تلقاء نفسه بأن النار خير من الطين، وبالتالي هو خير من آدم، ولا يمكن أن يسجد لمن هو دونه؛ كما هو في تصوره. والحقيقة خلاف ذلك، فحتى لو كانت النار هي خير من الطين؛ فلا يقابل أمر

الله تعالى بذلك، بل يلزمه السمع والطاعة، وهذا يفيد أن مقابلة الأمر الرباني بأحكام العقل أو الهوى هو حكم باطل، وقياس فاسد، وأن هذا منهج من مناهج إبليس عليه لعنة الله تعالى، وأنه يجب على المؤمن أن لا يعارض ولا يقابل أوامر الله تعالى ونواهيه وتشريعه، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفكره وعقله وتحليله، بل يقول سمعت وأطعت.

وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى الفوارق بين الطين والنار، وأبان وأوضح أن الطين أفضل من النار: وأن في امتناع إبليس من السجود، ومخالفة أمر ربه، وحكمه بأنه أشد منه يداً، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلاً، وذلك بتفضيل أصل جنسه الذي منه خُلِق، وهو النار، ومعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش، والاضطراب، والارتفاع علواً، فحمله ذلك على الاستكبار. وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة، والأناة، والحلم، والحياء، والتثبت. وكان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس، يعنيان بذلك القياس الخطأ. فابتعد إبليس بهذا القياس عن الفضل الذي خَصَّ الله تعالى به آدم على سائر خلقه، من خلقه إياه بيده، ونفخ فيه الروح، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كل شيء، مع سائر ما خصَّه الله تعالى به من كرامته، فضرب عن ذلك كله صفحاً، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خُلِق من نار، وخُلِق آدم من طين(١)

وقد ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى الفوارق بين الطين والنار، وأن الطين أفضل من النار، فقرر: أن هذا قياس باطل، لأنه عارض النص بالقياس، ولهذا قال بعض السلف: أول من قاس إبليس، ما عُبِدَت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، ويظهر فسادها بالعقل من وجوه خمسة: أحدها: فقد ادَّعى أن النار خير من الطين، فالطين فيه السكينة والوقار والاستقرار والثبات، وفي النار الخفة والحدة والطيش، والثاني: وإن كانت النار خير من الطين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل هو الأفضل، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله حجة فاسدة، احتج بها إبليس، وهي حجة الذين يفخرون بأنسابهم. والثالث: أنه وإن كان مخلوق من طين، فقد حصل بنفخ الروح المقدسة ما شَرُفَ به. الرابع: أنه مخلوق بيدي الله سبحانه وتعالى. والخامس: أنه لو فَرَضَ أنه أفضل فقد يقال: إكرام الأفضل للمفضول ليس بمستنكر(٢) وقد أكرم الله تعالى آدم بأن علمه الأسماء كما جاء في سورة البقرة.

فأعلن أن ليس لآدم حق السجود منه له، بما يفيد التحقير والاستصغار لآدم، وجحود أي فضل من الله تعالى يزيد به آدم عليه، إلى درجة معصيته لربه تبارك وتعالى، مما يفيد أن طاعة الله تعالى تقتضي الاستسلام، كما استسلمت الملائكة لله تعالى بكمال الطاعة والامتثال، وأن ليس للعقل، ولا للقياس تقديم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٦/١٠) مختصر

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (٦/١٥)

على توجيه الله تعالى وأوامره، ونهيه تبارك وتعالى. معللاً امتناعه بتفضيله للمادة التي خُلِق منها على المادة التي خلق الله تعالى منها آدم.

فَحَكَم اللهُ تعالى على إبليس بحكمه العادل ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي فاخرج من المكان والمكانة والمنزلة التي كنت فيها من الملأ الأعلى ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالطرد من رحمة الله تعالى، والطرد من المكانة والمنزلة التي كان فيها. والمرجوم بالشهب، التي تفيد الطرد والإبعاد ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وإن عليك اللعنة، التي هي الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، لتتعاقبه تلك اللعنة إلى يوم القيامة، فاللعنة عليه دائمة لا تنقطع، منذ أن لعنه الله تعالى إلى يوم الدين، الذي هو يوم القيامة، وهو يوم الحساب والجزاء، فهي لا تنقطع عنه أبداً. مما يفيد أن على الإنسان إذا رفعه الله تعالى، فعليه أن يحمد الله عَزَّ وجل، ويُحْسِن فيما أنعم الله تعالى به عليه، وأن يتواضع لله عَزَّ وجل، حتى لا يسلبه ما أنعم به عليه، فلا يتكبر بالنعمة على غيره كما تكبر إبليس، فأصبح من الهالكين، فإن النعمة منحة من الله تعالى، ولا يجعل للقياس العقلي حكماً على النص والحكم الشرعي.

ومع معصية إبليس لربه جَلَّ جلاله فإنه يسأل الله تعالى أن يُنْظِرَه إلى يوم البعث ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ فطلب إبليس من ربه تبارك وتعالى أن يؤخره إلى يوم أن يبعث الله عَزَّ وجل خلقه من قبورهم، فيحشرهم ليوم الحساب، أي: لموقف يوم القيامة ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ فقال الله تعالى له: فإنك ممن أخرت هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ الذي هو يوم القيامة. وهذا يدل على أن إبليس يؤمن بيوم القيامة، ويؤمن أن التقديم والتأخير بيد الله عَزَّ في علاه

ثم من حقده على آدم عليه السلام أن أقسم بعزة الله تعالى على أن يجتهد في غواية ذريته أجمعين ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ فلما عرف أنه حصل على ما يريد من التأخير إلى يوم البعث، وأنه واثق بأنه من المهلكين يوم القيامة، ازداد حسده لآدم وذريته ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي: لأزينن لذرية آدم عليه السلام المعصية التي يدخلون بها معه النار. وذلك بأن يحبب إليهم المعاصي، ويُرَغبهم فيها. فقد أقسم بعزة الله تبارك وتعالى أنه سيسعى إلى إغواء بني آدم أجمعين، دون استثناء منهم أحداً أبداً. وذلك عن طريق الوسوسة، وتزيين الشهوات، والشبهات، والتغرير بهم، حتى يصبحوا من الغاوين عن الطريق المستقيم، أي: يغويهم عن الامتثال بمنهج الله تعالى، ودينه القويم. فلأجعلهم جميعاً مثلي في الغواية، فكما

حصلت لي الغواية بسببهم، لأغوينهم مثلي جميعاً، وكلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تفيد الهدف والغاية: بأن مراده هو لجميع بني آدم، بغوايته لهم أجمعين، وبدون استثناء، فيزين المعاصي لهم، ويشغلهم بزينة الحياة الدنيا عن الدين، وعن طاعة رب العالمين، وعن توحيده عَزَّ وجل، وعن عبادتهم لربهم. والإغواء يستوعب تعدد وتنوع الأساليب، وتعدد وتنوع مادة الإغواء، وماهيتها، وهذه من بلاغة البيان لمعنى ودلالة لفظة الإغواء. مما يستوجب الحذر منه، ومن أساليبه، وفتنته. والاستعاذة بالله تعالى منه، والتمسك بالإخلاص لله جَلَّ في علاه، فإنها خير حاجب، وخير قوة بعونه وتوفيقه ومنته سبحانه وتعالى.

ثم استثنى منهم الممتنعين عليه، وهم المتصفون بالإخلاص لله تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ إلا عبادك المتصفون بالإخلاص لك. فاستثنى من عباد الله تعالى المخلصين، الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فأخلصوا العبادة والطاعة له سبحانه وتعالى، ولم يقصدوا بها غير الله عَزَّ وجل. مما يبين أن الشياطين لا تستطيع أن تؤثر في المتقين بما توسوس به لهم، وبما يزينونه من الباطل، فغواية المخلصين متعذرة وممتنعة على الشياطين، فاللهم اجعلنا من المخلصين لك يا رب العالمين، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان. وهذا يدل على أهمية الإخلاص ومنزلته ومكانته العظيمة، وأنه قوة وحصن للمسلم من الشياطين وغيرهم، مما يلزم المسلم الاجتهاد في تحصيله بأعلى الدرجات.

ومن دقائق البيا أنه تم تسميتهم بصفة الإخلاص ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهي تحمل دلالتين: الدلالة الأولى: باعتبار فتح اللام، أي: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته. والدلالة الثانية باعتبار كسر اللام، فيكون المعنى: الذين أخلصوا لله العبادة، بتوحيده، وإفراده بالطاعة والعبادة والامتثال. قال القرطبي، والشوكاني رحمهم الله تعالى: قرأ أهل المدينة والكوفة (المخلَصين) بفتح اللام: أي: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وتوحيده. وقرأ الباقون بكسرها. أي: الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد[1] فأفادت القراءتين: أنهم كانوا كما اصطفاهم ربهم، فجمعوا بين الصفتين: اصطفاء من الله تعالى، فجعلهم عباده المخلَصين بالطاعة والانقياد وتحقيق التوحيد لله سبحانه وتعالى. وكانوا كما اصطفاهم فإنهم أخلصوا لربهم بالتوحيد والانقياد. فجمعت القراءتين الكريمتين الدلالتين المتضافرتين. فلا شك أن الله تعالى قد أعان من آمن واصطفاه وأخلص له وحده لا شريك له، ليكوم من عباده المؤمنين، ليعلم أن فضل الله تعالى عليه عظيم، فلولا هداية الله تعالى وتوفيقه وإعانته لما تحقق للمؤمن إيمانه. وكذلك فإن الله تعالى لا يجير أحداً من النار ما لم يكن مؤمناً، مخلصاً العبادة لربه تبارك وتعالى. فلا يقبل الشرك أبداً عَزَّ في علاه، وعَزَّ جاهه. مما يبين منزلة ومكانة طاعة الله تعالى وثواب أهلها، ومنزلتهم عند ربهم تبارك وتعالى.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٥٢/١٥) والشوكاني، فتح القدير (٣٩٢/٤)

ثم قال تبارك وتعالى مهدداً ومتوعداً ومحذراً بقوته وقدرته وعظيم سلطانه ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ فقال تعالى: فإن الحق مني، وأن ما يصدر عني هو الحق المقطوع به، وليس غير الحق أقول. فنزه تبارك وتعالى ذاته العظيمة عن الباطل، ومن أن يكون منه غير الحق، وقرر لنفسه عَزَّ وجل الحق في كل شأن. ثم بعد هذا التقرير المهيب العظيم يتوعد الله عَزَّ وجل الشيطان ومن اتبعه من جنس الإنسان، فقال جَلَّ شأنه ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لأملأن جهنم منك يا إبليس وذريتك، وممن تبعك من بني آدم. بما يفيد أن جهنم يوم القيامة سوف تمتلئ من الفئتين ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ﴾ فهذه الفئة الأولى، فئة إبليس. والفئة الثانية هي: ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهي فئة ذرية آدم الذي أغواهم إبليس فاتبعوه، فإنهم يُحشرون معه في نار جهنم، وتمتلئ بالفئتين. مما يفيد المزيد من التحذير والترهيب من إبليس، ومن الطريق الذي سيؤول إليه إبليس ومن اتبعه من الغاوين بغوايته.

ثم يتوجه الخطاب في تمام سورة: ص، إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ببيان ما يقوله للكافرين ولعموم الناس بعد التحذير من إبليس ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ فلست اسألكم على ما أدعوكم إليه ثمناً، ولا نفعاً، بما يفيد ليس لي طمع في المال ولا غيره، ولا أريد أن استعلي عليكم بكثرة المال، ولا بأي نوع تفكرون فيه، فنفى بذلك المطلب من كل وجه، لا مادي ولا معنوي. فجملة ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ تفيد أي نوع من الأجر والنفع، كما تفيد ﴿ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ ﴾ نفي المطالبة لهم، لأن مصدر الأجر الذي يرجوه عليه الصلاة والسلام هو من الله سبحانه وتعالى. بما يبين لهم أن الله تعالى هو رب كل شيء، وأن الأرزاق منه وحده لا شريك له. فهو الذي يرزقكم ويرزقني، ويرزق جميع عباده.

ثم يؤكد عليهم أنه ملتزم بما أمره الله تعالى من غير أن يكلف نفسه عليه الصلاة والسلام بأي زيادة من عنده. فقال تعالى وقل لهم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ فلست من فئة المتكلفين، بأن أزيد على ما كلفني الله تعالى به، فأتكلف طمعاً في شيء، وفي نفي التكلف إثبات عدم الطمع بما يقتضي التنصيص على الامتثال القطعي من غير زيادة ولا نقصان. وبما يفيد تأكيد القصر والحصر على ما أمرني الله تعالى به. ولا أريد زيادة على ما منحني ويمنحني الله عَزَّ وجل من فضله. فقد أمره عَزَّ وجل أن ينفي ما يدور في عقولهم من الطمع في وجاهة ورئاسة وحظوة، بل إنه صلى الله عليه وسلم مقتنع ومكتفي بما منحنه الله تعالى من فضله وهدايته، وشرف الرسالة التي ليس بعدها شرف ومنزلة ومكانة. فليس له مطلب من حظوظ الدنيا. وفي هذا بيان لنزاهته صلى الله عليه وسلم عن أي شيء من مطامع الدنيا، وأنه أدى رسالته وفق ما أمر الله تعالى به، كاملة

وافية، من غير نقص ولا زيادة. فكمل الدين وتمت نعمة الله تعالى. كما يُعَلِّمُ هذا البيان أن على مَن يُتهم من غيره بما ليس فيه أن يبرر لهم، ويعلن لهم حقيقة شأنه.

ثم يحصر ويحدد الله تعالى ما يقوله رسوله صلى الله عليه وسلم للناس، بأن ما جئتكم به تذكير وإرشاد، وأحكام وشريعة للعالمين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فما هذا القرآن الكريم العظيم، وهذا الوحي من السنة المطهرة، وما أدعوكم إليه إلا ذكر من الله تعالى. وخص العالمين ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ليشمل جميع المكلفين من الإنس والجن أجمعين. وجملة قوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ القصر على أن ما جئتكم به هو مواعظ وإرشاد، وأحكام، وشريعة للعالمين، فتذكرهم بما يجب عليهم، فينتفي به كل ما هو خارج عن الذكر، ومن كل ما يظنون أو يفترون من الكذب. فهو تصحيح للناس إلى قيام الساعة.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة: ص، بموعظة عظيمة، وتحذير وترهيب، وتوجيه باغتنام فرصة التوبة والإنابة قبل فوات الأوان، فقال تعالى ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ وستعلمون أيها المكذبون ﴿ نَبَأَهُۥ ﴾ أي: صدق خبر ما أعلمكم وأنذركم منه رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، من وجوب توحيد الله تعالى، واتباع شريعته، والإيمان بجميع ما أنبأكم وأخبركم ووعظكم به عليه الصلاة والسلام. فإنكم ستعلمون حقائق ما أعلمكم به من البعث والجزاء والحساب، والجنة والنار ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ عن قريب، فهو بعد موتكم المحدد، وأيضاً وقت يوم القيامة.

فمن دقائق السياق الكريم: أن البيان عمم دلالة ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ فشملت دلالتها: القرب الزمني المحدد بموتهم، وأيضاً وقت يوم القيامة، لأنه عند موت الكافر يعلم ذلك الميت بحضور ملائكة العذاب إليه، وكذلك يوم القيامة حين الحساب والجزاء. فإنكم ستجدون ما وعدكم به ربكم من العذاب يوم الحساب؛ بعد وقت قريب ومحدد من ربكم سبحانه وتعالى، فما هو ببعيد، فعندما يحين وقت الساعة ستعاينون ما كذبتم به.

تم بحمد الله إتمام سورة: ص، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله.